# الفصل الثالث

## إبستيمولوجيا إسلامية المعرفة
## رؤية العالم والنموذج المعرفي
## والمنهجية الإسلامية

obeikandl.com

obeikandl.com

# تمهيد

أصبحت إسلامية المعرفة من المشاريع الفكرية الإسلامية التي تحظى بكثير من التقدير والاحترام العلمي في العالم العربي، بوصفها مشروعاً معرفيًّا حضاريًّا، ومطلباً ملحًّا لعلاج الأزمة الفكرية في العالم الإسلامي، وخطاباً عالميًّا يتفاعل مع مقتضيات الفكر المعاصر، لا سيّما في ظل المآلات التي انجرَّت إليها الحضارة الغربية المادية، ممثلة في المذهبية الوضعية التي أدخلت المعرفة وفلسفة العلوم في أزمة عميقة، تحتاج إلى رؤية معرفية مغايرة لحلها.

منذ إصدار الخطاطة الأولى التي حملت عنوان "إسلامية المعرفة ورقة عمل" من إعداد الفاروقي -رحمه الله-، والأبحاث تتوالى في المنهجية الإسلامية؛ إذْ يرى الباحثون أن أزمة العقل الإسلامي وانكفائه عن العطاء العلمي، يعود إلى قصور الأدوات المنهجية المستخدمة، وإلى بقائه رهينة منهجية تقليدية، لم تعد قادرة على الإجابة عن الأسئلة المعرفية المعاصرة، وتحتاج من وجهة نظرهم إلى عملية تثوير أخرى؛ لتوسيع مجال اشتغال الحقل المعرفي الإسلامي، لا سيّما في ظل مبتكرات منهجية حديثة، فلمَ لا يتم الإفادة منها في إعادة التأسيس المعرفي وتطوير المنهجية الإسلامية، لتتمكن من حل المعضلات والمشكلات التي يعاني منها العقل الإسلامي؟

رأى دعاة إسلامية المعرفة أن أكبر مشكلة تعاني منها المجتمعات الإسلامية تتعلق بالمجال التربوي، ممثلة في تلك الازدواجية التي تطبع الحياة التعليمية والثقافية للأمة الإسلامية؛ إذْ انقسم التعليم فيها بين تعليم مدني معاصر تدرس فيه العلوم الطبيعية المدنية المعاصرة، وتعليم دينيّ تعلم فيه الأصول الدينية وقواعده؛ مما أدى إلى تشكيل ثنائيات علمية، حرمت العقل الإسلامي من التعامل مع المعرفة في إطار وحدة نظرية المعرفة الإسلامية، تلك الوحدة التي يتم فيها الجمع بين وحدة المعرفة ووحدة الحقيقة، والجمع بين مصدري المعرفة -الوحي والعقل- في دراسة الظواهر.

تعدّ إسلامية المعرفة مشروعاً مفتوحاً من الناحية المنهجية أمام العقول الإسلامية لتوسيع مداركه وأدواته وآفاقه، لكن تبقىٰ الرؤيةُ الإسلامية إلىٰ العالم النواة المركزية للمشروع والتي يمكن أن ننهل منها لتأسيس نموذج معرفي، نتمكن من خلاله من توليد المعارف والعلوم المختلفة، ونتمكن من الولوج إلىٰ التاريخ مرة أخرىٰ، ونستأنف عملية البناء الحضاري؛ لذلك سنتناول في هذا الفصل إسلامية المعرفة بوصفها حلاً معرفيًّا وبديلاً منهجيًّا للأزمة الفكرية التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وإسلامية المعرفة كرؤية العالم أو الوجود، وكيف يمكن أن نولد منها نموذجاً معرفيًّا إسلاميًّا، ونؤسس لمدخل منهجي إسلامي، ونوضح طبيعة العلاقة المنهجية مع التراث المعرفي الإسلامي، ومع التراث الفكري الإنساني؟

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

## أولاً: إسلامية المعرفة ورؤية العالم

انطلاقاً من التعريف الإجرائي الذي أعطيناه لرؤية العالم في الفصل السابق، بوصفها خريطة تصورية إدراكية يحملها كل إنسان في هذا العالم، تجيب عن الأسئلة النهائية والكلية المتعلقة بـطبيعة الكون/ الوجود، طبيعة الحياة/ الإنسان، عن الإله/ الإنسان، ومصدر هذه الرؤية في الغالب الأعم هو الدين، بوصفه أهم مكون ثقافي عرفته كل الحضارات الإنسانية، ولأنه يمثل البعد الميتافيزيقي للإنسان؛ أي بمعنىٰ آخر، يجيب عن بداية الخلق وطبيعة الخالق، وعن عظمة الكون واتساقه، وعمّن يمثل المركز، ومن يمثل الهامش في هذا الوجود، ومن هذا المنطلق، يمثل الدين الإسلامي رؤية إلىٰ العالم، ومشكلة من جملة عناصر ميتافيزيقية، يمكن أن نطلق عليها الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، مصدرها بكل تأكيد الوحي الرباني.

يمكننا من خلال العودة إلىٰ النص القرآني والسنة النبوية، أن نجد الإجابة عن الأسئلة الكلية والنهائية التي تطرأ علىٰ العقل البشري، ونجد خصائص هذه الرؤية المتفردة والمتميزة، بوصفها رؤية مشكلة أو مبنية علىٰ نص أو خطاب إلهي، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنها أكثر يقيناً لأنها متصلة بالوحي الرباني، وأكثر عقلانية لأنها مبنية علىٰ مقدمات معرفية ومنهجية منسجمة مع مبادئ العقل الإنساني.

سنتناول خصائص الرؤية الإسلامية ومكوناتها بالتفصيل، لكن مع ملاحظة أن هذه الرؤية إلىٰ العالم علىٰ المستوىٰ النظري التصوري، فقدت فعاليتها في الحياة الإسلامية؛ لأنه قد أصاب حامليها غبش في رؤيتهم العقدية والمعرفية، فمن جهة، لم يعد الوحي المصدرَ الأولَ والمباشر لهذه الرؤية إلىٰ العالم، بل أصبحت الثقافة المجتمعية هي مصدرها؛ مما أدىٰ إلىٰ اختلال معرفي ومنهجي لها، بسب الإضافات البشرية والقراءات التأويلية للنص الديني عبر العديد من المراحل التاريخية، مما يفوت علىٰ المسلم المعاصر العودة إلىٰ المنبع الأصلي لاستلهام هذه الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم. ومن جهة أخرىٰ، فإن إكراهات النموذج المعرفي الغربي قد تأتي أدواته الإجرائية مفصولة عن الرؤية المادية العلمانية التي تشكل مقدماته

المعرفية والمنهجية، فلا يتنبه المسلم لتلك الأدوات ظناً منه أنها محايدة، فيقع في صراع فكري بين رؤيته الإسلامية والرؤية التي تختزنها تلك الأدوات، ولعل ظاهرة العولمة، وما تفعله عن طريق الميديا ووسائل الاتصال من تبديل وتزييف للرؤية الإسلامية إلى العالم لخير دليل على ذلك.

وتعاني الرؤية الإسلامية من تحريف لعناصرها عن طريق بعض الوسائل الثقافية الإسلامية التي حصرت العقل الإسلامي في الغيبيات وحجبته عن دراسة عالم الشهود، فأدى ذلك إلى انحطاط حضاري تعاني منه الأمة الإسلامية ولا تزال، وهي تعمل جاهدة على الخروج منه بشتى الطرائق والإمكانات.

تأتي إسلامية المعرفة بوصفها مشروعاً معرفيًّا حضاريًّا، لتعيد تفعيل الرؤية الإسلامية إلى العالم في كل جوانب الحياة المعاصرة في العالم العربي والإسلامي، ولا سيّما في الجانب المعرفي عن طريق إعادة التأسيس لمقدمات النموذج المعرفي الإسلامي، وآلية لتأسيس المنهج الإسلامي، ونزعم أن بقية المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي بالضرورة تأتي بناءً على هذه الرؤية الإسلامية.

لذلك؛ تحول إسلامية المعرفة الرؤية الإسلامية إلى العالم، كخريطة تصورية يحملها الإنسان المسلم إلى خريطة معرفية منهجية، يتمكن من خلالها المسلم من توليد المعرفة، التي تكون بالطبع متسقة مع هذه الرؤية وحاملة لعناصرها؛ لذلك سنعرج على تحديدها في مايلي:

**١- ماهية الرؤية الإسلامية إلى العالم:**

بعض الباحثين في العالم الإسلامي سماها الرؤية إلى العالم، ومنهم من سماها الرؤية الكونية، وبعضهم وصفها بأهم ميزة لها وهي التوحيد، فسماها الرؤية الإسلامية التوحيدية؛ لذلك نحاول أن نسوق العديد من التعريفات لها في ما يلي:

تتضمن الرؤية إلى العالم في تصور ملكاوي ثلاثة مستويات، حالة ذهنية نفسية، وموقف معرفي من العالم -الوجود، وخريطة لتغيير العالم، فيقول: "إن رؤية العالم أو الرؤية الكونية في التفكير الإسلامي ليست مجرد قضية نظرية

ترتبط بعلم الكلام "تيولوجيي،"وإنما تعبر عن ثلاثة مستويات مترابطة ومتكاملة، رؤية العالم أولاً: تصور ذهني للعوامل الطبيعية والاجتماعية والنفسية، فكأنها مجموعة من الصور الثابتة والمتحركة يراها الإنسان، تلفت انتباهه وتدعوه إلىٰ التفكر والتأمل، بقصد الفهم والإدراك، ورؤىٰ العالم ثانياً: موقف من العالم أو حالة نفسية عند الإنسان، تستدعي إقامة علاقة بهذه العوامل، علاقة تمكين وتسخير وسلام وتحكيم، وإجلال وتهيب، ورغبة رهينة، ورؤىٰ العالم. ثالثاً: خطة لتغيير العالم؛ أي مجموعة من الأهداف التي يسعىٰ من خلال تحقيقها إلىٰ جعل العالم أكثر انسجاماً وتوازناً، ويصبح الإنسان أكثر تمكناً من توظيف أشياء العالم وأحداثه وعلاقاته، وتسخيرها لبناء حياة أفضل للإنسان في هذا العالم بوصف هذه الحياة مزرعة لدنياه وآخرته."(١)

وتتمثل وظيفة رؤية العالم في عمليات تفسير الوجود التي تقدمها للمسلم، وطبقاً لها يتصرف ويسلك ويفكر، "فالوظيفة الأساسية لرؤية العالم عند الفرد هي وظيفة تفسيرية، فبها يفهم العالم، ويفسر أحداثه وظواهره، وبها يفهم لماذا يفكر ويسلك بالطريقة التي يفكر بها أو يسلكها."(٢)

ويعرّف عبد الحميد أبو سليمان الرؤية الإسلامية الكونية، بقوله: "إنها رؤية توحيدية غائية أخلاقية إعمارية خيرية حضارية تعبر عن الفطرة الإنسانية السوية، وهي بذلك بالضرورة رؤية علمية سننية تسخيرية، تهدف إلىٰ جعل عناصر الفطرة الإنسانية السوية في بؤرة الوعي الإنساني، تهدي مسيرة الحياة الإنسانية وترشدها، في تحقيق الإنسان ذاته السوية في أبعادها الفردية والجماعية، ويستجيب في وسطية واعتدال لحاجاتها ومتعها، علىٰ مدىٰ أفق الوجود الإنساني بكل أبعاده الروحية والإبداعية العمرانية."(٣)

---

(١) ملكاوي، فتحي حسن. "رؤىٰ العالم والعلوم الاجتماعية"، **مجلة إسلامية المعرفة**، بيروت: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س ١٣، ع ٤٥، (٢٠٠٦م)، ص٥/ ٦.

(٢) المرجع السابق، ص٨.

(٣) أبو سليمان، عبد الحميد. **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، القاهرة: دار السلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٩م، ص٤٦.

تنبني الرؤية الإسلامية إلى العالم على مرتكز التوحيد، الذي يعدّ أمراً فطريًّا لدى الإنسان، وتتمثل فعالية هذه الرؤية في نقل الصورة الاعتقادية إلى صورة إعمارية في هذا الكون، وهي رؤية واضحة وجلية لطبيعة الوحي الرباني الذي تأسست عليه، فهي سهلة الإدراك ولا تحتاج إلى عميق نظر للتوصل إليها؛ لأن من خاصيتها أنها جاءت للبشرية قاطبة، وليست لطبقة أو نخبة معينة، تمتلك ميزات خاصة لفهمها، كما في رؤى العالم التي صاغتها الفلسفات الإنسانية والعلوم البحتة، "كلما كانت هذه الرؤية واضحة وجلية وسهلة الفهم والتمثل والإدراك، كانت بعيدة عن التناقض وعن الخرافة والأوهام، وكلما كانت بعيدة عن السفسطة والتعقيد وبعيدة عن الإغراق في لغة التجريد والتنظير وفرض مسلمات القهر التي تخفي العجز والتناقض، مثلت هذه الرؤية قوة ضميرية عقدية تربوية وفاعلة محركة للفرد والمجتمع، ومفعلة منهجية التفكير وكل ما لدى الفرد والمجتمع من أدوات الفعل والحركة وضوابطها المتمثلة في مبادئ المنهجية، وما تنطوي عليه هذه المنهجية من مفاهيم وقيم وضوابط."[١]

يُفهم كل سلوك أو نشاط بشري يقوم به الفرد أو يسود الجماعة في مجتمع ما في ضوء رؤية كونية كلية تحكمه وتشكله، "أي إن الصورة المنعكسة في أذهاننا عن الوجود، لها تأثير مباشر في عملنا وسلوكنا الاجتماعي وحياتنا الفردية والاجتماعية، أي كل شخص يعيش وفق رؤيته للكون."[٢]

تُعبِّر الرؤية الإسلامية إلى العالم عن العقيدة الإسلامية المستنبطة من الوحي الرباني؛ لذلك تحيط بكل الوجود، وتمتد بعناصرها في الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الإسلامية، "فالرؤية الكونية في إطارها الإسلامي تعبير عن التصور الاعتقادي الكلي الذي تقدمه العقيدة الإسلامية، ويتضمن هذا التصور تفسيراً شاملاً للوجود وقضاياه وحقائقه، وينبثق عن هذا التصور منهج الحياة الواقعي

(١) المرجع السابق، ص٢٠.

(٢) شريعتي، علي. **الإنسان والإسلام**، ترجمة: عباس الترجمان، بيروت: دار النهضة، ١٩٩٢م، ص٢٩.

للإنسان ودستور نشاطه في ضوء فهم الإنسان لمركزه في الكون وغاية وجوده الإنساني في هذا الكون."[1]

الرؤية الكونية التوحيدية جزء من المعرفة التي فطر عليها الإنسان، ولا تحتاج إلى وعي أو دراية خارقة لفهمها أو التوصل إليها، إنما تحتاج إلى عقل متدبر في ملكوت الله طاهر من شوائب المعرفة البشرية ليصل إليها؛ إذْ "إن الرؤية الكونية التوحيدية بهذا المعنى هي جزء من تلك المعرفة الضرورية التي زود الله بها الإنسان بطريقة فطرية، وتنمو وتنضج بجهد مكتسب عبر استعمال القدرات الذهنية والإدراكية في التأمل والاعتبار، والنظر في حركة المخلوقات ونظمها وأحوالها، والرؤية الكونية التوحيدية تضمنت تفاصيل حياة الإنسان ورسائله في الدنيا التي تمثل عالم الشهادة وما ينتظره في الآخرة أو عالم الغيب."[2]

ترتكز الرؤية الإسلامية إلى العالم على جملة خصائص، تجعلها غير قابلة للتبديل أو التطوير لاعتمادها المطلق على الوحي الرباني، ومنها الشمولية والعالمية والثبات، وترتكز على جملة مقومات تعطيها بعدها الخصوصي والحضاري والمعرفي، وهي:

- البعد الأنطولوجي للرؤية الإسلامية إلى العالم، يمثل التوحيد الركيزة الأساسية للرؤية الإسلامية، تليه ثنائية: الخالق والمخلوق، ثم ثنائية الوجود: عالم الغيب وعالم الشهادة.
- البعد الكسمولوجي للرؤية الإسلامية إلى العالم، الكون والطبيعة في الرؤية الإسلامية إلى العالم.
- مركزية الإنسان في الرؤية الإسلامية إلى العالم، البعد الروحي للإنسان، البعد المادي للإنسان، الثنائية التركيبية للإنسان (الروحية –المادية).
- البعد الإيكسولوجي للرؤية الإسلامية، القيم في الرؤية الإسلامية إلى العالم.

---

(١) قطب، سيد. **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥م، ط٦، ص١٦.

(٢) إبراهيم، أبو بكر محمد. **التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٧م، ص٣٨.

وأخيراً، البعد الإبستيمولوجي للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، ونقصد بها النموذج المعرفي الإسلامي المتولد عن الرؤية إلىٰ العالم.

**٢- خصائص الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم:**

تختلف الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم عن الرؤىٰ الفلسفية والعلمية التي صاغتها العقول البشرية، كونها رؤية مؤسسة علىٰ الوحي الرباني، ممثلة في القرآن الكريم وسنة نبيه المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وسلم؛ مما يجعلها رؤية أكثر صدقاً ويقيناً وعقلانية؛ لأنها في مجال الطبيعيات والكونيات والغيبيات تتجاوز حدود العقل البشري، إضافة إلىٰ إجاباتها عن الأسئلة الكلية والنهائية التي تشغل العقل الإنساني، والتي لا يمكنه الإجابة عنها كسؤاله عن: طبيعة بداية الخلق، والغائية من الخلق، وبداية الكون ونهايته، وعن سر انتظام الكون، وعن علاقة الإنسان بالإنسان وبالطبيعة، وبخالق الكون.

رؤية العالم الإسلامية هي إجابات نهائية قطعية لا يعتريها التخمين والظن، كما في الرؤىٰ التي صاغها العقل الإنساني ممثلة في الفلسفات الإنسانية في الحضارات البشرية المختلفة، وبؤرة التمركز في هذه الرؤية هي التوحيد، بوصفه الأساس العقدي والمعرفي والناظم المنهجي لهذه الرؤية، وأخص خصائصها، فانطلاقاً منه وبناءً عليه، تتأسس كل الخصائص الأخرىٰ للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم من ثبات وشمولية وعالمية، ويمكن أن نعدّه أهم ميزة لهذه الرؤية الإسلامية.

تتميز الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم بجملة من الخصائص، تجعلها تختلف جذريًّا عن رؤية العالم التي تهيمن اليوم علىٰ الإنسان الغربي، وتهيمن علىٰ نموذجه المعرفي وأدواته الإجرائية والتنظيمية، ويعدّ الوعي بهذه الرؤية أهم مدخل منهجي لإعادة الإحياء العلمي والمعرفي في العالم الإسلامي، وأحد البدائل المعرفية التي يمكن طرحها في العالم المعاصر لحل الأزمة الإبستيمولوجية التي تعصف بالمعرفة الوضعية العلمانية الغربية، تلك المعرفة التي أدخلت البشرية في مآزق حضارية عديدة، سياسية واقتصادية واجتماعية، تآكلت معها القيم والمعاني الإنسانية في

القرن المعاصر؛ إذْ تم تفكيك الإنسان إلىٰ أبعاده المادية الذرية، وتجفيف كل منابع القيمة والمعنىٰ.

إن وعي الإنسان المسلم بالرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، سيمكن الأمة الإسلامية من العودة إلىٰ صناعة التاريخ، والإسهام في المعرفة الإنسانية، بشرط تحريرها من الزيف والانحراف الذي أصابها، كنتيجة لعوامل عديدة، يأتي علىٰ رأسها العلم المدني الذي استورد من الغرب، والذي يستبطن رؤية مادية إلحادية، شكلت جذورها الفلسفة الإغريقية والمسيحية المحرفة.

من هذا المنطلق، سنتناول أهم خصائص الرؤية الإسلامية للعالم كالتالي:

**أ- الألوهية في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم:**

في كل رؤىٰ العالم التي تم تشكيلها وبلورتها، ومهما كانت مرجعيتها للديانات التوحيدية أو الديانات الوضعية، أو الديانات المحرفة، فإنّ أول سؤال تواجه به العقل الإنساني هو: هل هناك خالق للكون تترتب عليه أمور معرفية وقيمية؟ وما طبيعة علاقة الإنسان بهذا الخالق؟ أم أن الكون خلق ذاته بذاته ولذاته كما تروج الفلسفات المادية، التي تعدّ خلقه محض صدفة؟

إن أول خاصية للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، هي خاصية الألوهية، فأول تصور متعلق بالألوهية في هذه الرؤية هو تصور اعتقادي غيبي، يؤكد أن هناك خالقاً لهذا الكون، متجاوزاً لعالم المادة أو عالم الشهادة، يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، "إن الربانية أولىٰ خصائص التصور الإسلامي ومصدر هذه الخصائص ...فهو تصور اعتقادي موحىٰ به من الله سبحانه وتعالىٰ، ومحصور في هذا المصدر لا يستمد من غيره ... وذلك تمييزاً عن التصورات الفلسفية التي ينشئها الفكر البشري حول الحقيقة الإلهية، أو الحقيقة الكونية، أو الحقيقة الإنسانية، والارتباكات القائمة بين هذه الحقائق، وتمييزاً له كذلك من المعتقدات الوثنية، التي تنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصورات البشرية."[1]

(١) قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، مرجع سابق، ص٤٥.

ويعد التصور الإسلامي عن الربانية -الألوهية التصور الوحيد والسليم؛ لأنه مستمد من كتاب الله عز وجل، مما يجعل الحقائق المعرفية التي أتى بها القرآن في توصيف الإله هي وحدها الصحيحة، ولأن الإسلام ممثلاً في القرآن الكتاب الوحيد من الكتب الدينية الذي لم يحرف ولم تصبه تأويلات البشر، وهذا لأن الله هو الذي حفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

يتعرف الإنسان المسلم على حقيقة الألوهية عن طريق الوحي، وليس عن طريق العقل؛ لأنه عاجز عن الإحاطة به. الله في الرؤية الإسلامية مفارق للوجود، عكس رؤى العالم التي شكلتها الفلسفات المادية، التي أنكرت حقيقة الألوهية تماماً، والتي ردت الوجود إلى عالم المادة؛ حيث "إن المادة هي أقدم الموجودات، فالموجودات اللاحقة كلها، داخلة في ماهيتها أو نتيجة وثمرة لها كالروح والفكر والإحساس. والمادة مستقلة في الوجود عن وعي الإنسان وإدراكاته، وليس كما ينسب إلى المثاليين من أن المادة أثر من آثار الفكر، أو أنها وهم لا وجود له إلا في الفكر."[1]

إذن، عدّت الفلسفات الإنسانية الغربية الله هو محض خيال إنساني اخترعه الإنسان ليستأنس به في هذا الوجود، وذهبت الفلسفة الوضعية أكثر من ذلك، عندما رأت أن الوعي الديني الميتافيزيقي هو مرحلة من المراحل التي مر بها العقل الإنساني ليصل إلى مرحلة النضج العقلي، ورأت الوضعية المنطقية أن كل ما يقع خارج الحواس لا وجود له على الإطلاق ولا داعي لإثباته.

ورأت النظريات النفسية الفرويدية أنّ الدين والإله مكبوت نفسي في لاوعي العقل البشري، نتيجة خوفه من المجهول ومن المستقبل، ووصل الأمر بالفلسفات العدمية لتعلن عن موت الإله مع الفيلسوف الألماني نيتشه، فقد اختلطت صيحة نيتشه بأن "الإله مات" -التي ما يزال صداها يتردد في العالم الغربي- بصيحة أخرى وهي أن المسيحية قد ماتت، حتى إن بعض علماء الدين المؤثرين من المسيحيين، ولا سيّما البروتستانت الذين يبدو أنهم قد تقبلوا مصير المسيحية التقليدية بتسليم

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان. **نقض أوهام المادية الجدلية**، دمشق: دار الفكر، ١٩٧٨م، ص١٢.

بحكم ميلهم نحو التغيير، بدؤوا في وضع الترتيبات لأسس دينية جديدة على أنقاض المسيحية التقليدية، إذ تنبعث من هذه الأسس الدينية الجديدة مسيحية حديثة ذات سمات علمانية.(١)

إن الرؤية الإسلامية إلى العالم المتكئة على كثيرٍ من آيات الذكر الحكيم، والتي تتناول صفات الله وأسماءه، وقدرته ومشيئته، وخلقه للخلائق وللكون وإيجاده للوجود من العدم، وتتناول عظمته وعزته وجلاله، ورسله التي بعثها تترى إلى بني آدم وللبشرية، وكتبه السماوية التي نزّلها وأوحى بها لرسله، لا يملك المسلم سوى التصديق بها، وإن أراد أن يتأكد منها، فهناك آيات عديدة ترشده إلى التدبر في ملكوت الله، وفي خلقه، وفي كونه؛ ليتأكد الإنسان من أن لهذا الكون صانعاً وموجداً، ويحثه القرآن على الإبصار العقلي بوصفه وسيلة إدراكية معرفية، يختص بها دون سواه في هذا الوجود.

إن الرؤيةَ الإسلامية إلى العالم غيرُ الرؤية المسيحية، التي أصابها الزيف والتحريف بعد أن اختلطت بالفلسفات اليونانية، والتأويلات البشرية لنصها الأصلي الإنجيلي؛ أي حلَّ الإله في عقيدة التثليث، وخلق الله الخلق وتركهم وشأنهم، وتطور الأمر مع الفلسفات العلمانية الإلحادية فأصبح الإله حالاً في الإنسان، بل وأصبح الإنسان مركز الكون.

هناك ثنائية الخالق المتجاوز لمخلوقه في الرؤية الإسلامية إلى العالم، ولكن ليس مفارقاً تماماً له، ما يجعل الإنسان حرًّا في هذا الوجود يفعل ما يحلو له، بل الإله المدبر لهذا الكون، والإنسان مسؤول بأفعاله أمام هذا الإله ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧]، "إذا كانت التصورات الأرسطية والوثنية- وكذلك التصور النصراني- المطابق فعل الذات الإلهي، الذي

(١) العطاس، سيد محمد نقيب. **مداخلات فلسفية في العلمانية والدين**، ترجمة: محمد الميساوي، ماليزيا: المعهد العالمي للحضارة والفكر الإسلامي، ٢٠٠٠م، ص٢٨.

تراه مجرد خالق للعالم، غير مدبر له، ما لقيصر لقيصر وما لله لله، هي المنطلقات التي اعتمدها التصور العلماني الذي يحرر الله من حاكمية الشريعة الإلهية،"[1] ويشير مالك بن نبي إلى أن طبيعة الإنسان خاضعة لما هو زماني مكاني في حين أن القرآن الكريم يتجاوزهما خاصة ما تعلق بعالم الغيب، فيقول: "إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض، يخضع كل شيء لقانون المكان والزمان، بينما يتخطى القرآن دائماً نطاق هذا القانون وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الطبيعية للعبقرية الإنسانية، ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد من الناس أن يقرأ قراءة واعية يدرك من خلالها رحابة موضوعه، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية لا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق."[2]

ويرى محمد الغزالي أن حديث القرآن عن الله يمزج بين أمرين:[3]

الأول: فقر العالم إلى الله وقيامه به واستمداد الوجود منه، أي إنه من المستحيل أن يتخلق من غير خلق، أو ينتظم من غير منظم.

الثاني: إن هذا الخالق المدبر واحد لا شريك له، ليس له ندٌّ أو ضدٌّ، كل شيء هالك إلا وجهه، كل شيء من إنس وجن، أو ملك عبد قنَّ له وحده، يستوي في هذه العبودية، حيوان مستخف تحت التراب، أو ملك ساجد تحت العرش ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه: ٦].

ويقول أبو حامد الغزالي: إن الله عزل وجل "ليس مجسماً ولا مصوراً ولا جوهراً محدوداً مقدراً، وأنه لا يماثل الأجسام في التقدير، ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر ولا يحله الجواهر، ولا بعَرَض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله وجود، وليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء وإنه لا يحده المقدار

---

(١) عمارة، محمد. "الموقع الفكري لابن رشد بين الغرب والإسلام"، **مجلة إسلامية المعرفة**، مرجع سابق، ص٨٨.

(٢) ابن نبي، مالك. **الظاهرة القرآنية**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط٤، ١٩٨٧م، ص١٩٦.

(٣) الغزالي، محمد. **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، القاهرة: دار الشروق، د.ت، ص٢٢.

ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات ولا تكنفه الأرضون ولا السموات، وإنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والتناقل."[1]

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، إن الله الخالق، كائنٌ مريد عالم، وإن كل شيء عدا الله هو خلقه، ولا يوجد إله غيره، الأحد الصمد، الذي يعتمدُ عليه كلُّ شيء في وجوده وبقائه، وهو الدائم بإرادته وهيمنته، وعلمه بخلقه شامل.

**ب- شمولية الرؤية الإسلامية إلى العالم:**

تتميز الرؤية الإسلامية إلى العالم بصفة الشمولية، مما يعني أنها رؤية تحيط إحاطة كلية بكل التفاصيل الكلية والجزئية لهذا الوجود، على عكس الرؤى العالم المتمخضة عن الفلسفات البشرية، أو المتولدة عن العلوم؛ لأنها رؤى قاصرة عن الإحاطة الشاملة بالوجود، لاختلاف مصادر أو أدوات المعرفة في كل رؤية.

الرؤية الإسلامية إلى العالم مصدرها الوحي الرباني، مما يعطيها صفة الكلية وصفة اليقين، متجاوزة لحدود العقل الإنساني، على عكس رؤى العالم التي تعتمد على العقل وسيلة للإحاطة بالوجود، مما يجعلها قاصرة ومتغيرة وغير ثابتة ومتبدلة بتبدل وسائل العقل وأدواته، التي يستخدمها في الرصد والمشاهدة والمتابعة، فمثلاً الرؤية الفلكية التي صاغها بطليموس وغيرها كيبلر، على الرغم من أنه لم يضف سوى فكرة دوران الأرض حول الشمس، عكس الرؤية البطليموسية التي تؤكد دوران الشمس حول الأرض.

يعدّ العقل البشري جزءاً من الوجود، فلا يمكن بأي حال أن يحيط إحاطة مطلقة بالوجود؛ لذلك فالرؤى التي يشكلها العقل تصلح لحضارة إنسانية معينة،

---

(١) الغزالي، حجة الإسلام الإمام محمد بن محمد. **مجموعة رسائل الإمام الغزالي**، مراجعة وتحقيق: إبراهيم أمين محمد، القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت، ص١٧٤.

ثم يكتشف بمرور الزمن أنها لم تعد صالحة، فينتقل من رؤية إلى أخرى، في حين الرؤية الإسلامية إلى العالم شاملة؛ لأنها تعتمد على النص القرآني الذي أتى تصديقاً للكتب السماوية التي سبقته، وجاء آخر كتاب لأهل الأرض، وبه ختمت الرسالات السماوية؛ لذلك يقيناً وتصديقاً به، أن الرؤية التي يحويها نحو العالم والوجود هي الرؤية الشاملة، حتى وإن استخدم العقل كل مناهجه للكشف عنها، فإنه سيظل عاجزاً أن يصل في يوم ما إلى بعض عناصر الرؤية الإسلامية إلى العالم، "الإنسان أولاً محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان... إذ هو حادث في زمن، يبدأ من عدم وينتهي بعد حدوث، ومتحيز في المكان، سواء كان فرداً أو جيلاً أو جنساً، لا يوجد إلا في المكان، ولا ينطلق وراء المكان -كما أنه لا يوجد إلا في زمان ولا ينطلق وراء زمان- ولأنه محدود الكينونة من ناحية العالم والتجربة والإدراك.. "[1]

تتجلى خاصية الشمول التي تتسم بها الرؤية الإسلامية إلى العالم في صور شتى، "إحدى هذه الصور وأكبرها ردّ هذا الوجود كله... بنشأته ابتداءً، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقه فيه، وكل تحور وكل تغير وتطور...والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه، ... إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية المطلقة ... هذه الذات المريدة القادرة، المطلقة المشيئة، المبدعة لهذا الكون، ولكل شيء فيه ولكل حي، ولكل حركة، وكل انبثاقة، وكل تحور وتغيّر، وكل تطور بقدر خاص .. وبمجرد توجه الإرادة.."[2]

إن الرؤية الإسلامية إلى العالم وحدها القادرة على أن تقدم كل الإجابات عن الكون والوجود والعالم الذي يحيط بنا، كما أنها تقدم لنا كل التفسيرات عن بداية الخلق وبداية الكون، وعن غاية الخلق وغاية الكون، وعن سر تنوع الحياة في الأرض، وعن السديم اللانهائي في السموات العلى، وعن نشأة الإنسان وغاية وجوده، وسر نهايته، وغيرها من الأسئلة التي تخالج العقل البشري.

---

(١) قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، مرجع سابق، ص٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٦.

أما صفة العموم في الرؤية الإسلامية إلى العالم، فهي عموم في الإنسانية، وعموم في الزمان والمكان، فلم تستهدف هذه الرسالة قوماً محددين في وقت معين أو بلد محدد، بل هي نداء إلى البشرية كلها وللإنسانية جمعاء، فالبشر في إطار المنهج الإسلامي وحدة واحدة، وكل موحد لا يتجزأ، "الوحدة الإنسانية في هذا المنهج هي حقيقة الحياة والإحياء على تنوع الأجناس والأنواع، والوحدة الإنسانية هي حقيقة الإنسان والإجماع البشري على تنوع الشعوب والقبائل، واختلاف الديار، ووحدة الدين سمة من سمات هذا المنهج، ووحدة الرسل والرسالات، جزء من العقيدة التي جاء بها، فالبشر كلهم قد خلقهم الله من نفس واحدة."[1]

إذن، على عكس رؤى العالم التي تشكل جذورها الفلسفيةَ النزعاتُ القومية، كما ظهرت في الحضارة الغربية مع الفاشية والنازية، والتي تؤكد أن البشر أصناف ومراتب، أرقاها الجنس الآري، ثم تأتي بقية الأعراق الحقيرة بزعمها، فإن الرؤية الإسلامية هي رؤية يمكن أن يستنبطها أي إنسان، مهما كان لونه وجنسه وعرقه، من خلال قراءة الكتاب المسطور، فهي رؤية شملت كل جوانب الوجود ومناحيه، وإن كانت الرؤى الوجودية العرقية أقصت أجناساً بشرية بدعوى التميز والتفوق الحضاري، فإن الرؤية الإسلامية إلى العالم على العكس من ذلك تماماً، فهي تسعى إلى الدفع بالإنسان إلى اليقين بأن هناك موجداً لهذا الوجود .

**ت- عالمية الرؤية الإسلامية:**

نأتي إلى خاصية ملازمة لخاصية الشمولية في الرؤية الإسلامية، وهي خاصية العالمية، بمعنى آخر، تتكئ الرؤية الإسلامية إلى العالم على خطاب قرآني، مضامين آياته عالمية؛ أي أنه موجه للبشرية قاطبة، وتأسيساً عليه، تحمل الرؤية الإسلامية صفة العالمية التي يحملها الدين الإسلامي، وهنا، تشمل الرؤية جوانب الحياة الإنسانية ما يجعلها عالمية، فهي لا تختص بعرق أو جنس أو لون أو طائفة، بل هي دعوة إلى بني البشر للتأمل في هذا الكون المنثور، لتتكشف أمامهم حقيقة

---

(١) العلواني، طه جابر. **الأزمة الفكرية ومناهج التغيير**، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م، ص١١٤-١١٥.

الألوهية الدالة على عظمة خالق الكون.

تكتسب النماذج المعرفية التي تتأسس على الرؤية الإسلامية إلى العالم صفةَ العالمية؛ لأنه مهما حاول العقل الإنساني أن يصوغ رؤى للعالم مُنطلقاً من ذاته، فإنها لن تكون إلا رؤى يحكمها البعد التاريخي، ولحظة الوعي والوسائل المستخدمة في تشييدها وبنائها، "فكرة الدين العالمي لم تنشأ ابتداءً من ذهن الإنسان لتنمو من بعد وتتطور عن أطوار ثقافته وتاريخه، ولكنها قد أُنزلت إليه من الله تعالى، وإلا لما أَمكَنه تعقُّلها، وذلك هو ما يفسر لنا كيف لم يستطع فلاسفة الإغريق وحكماء العصور القديمة قط أن يتصورا ديناً عالمياً، على الرغم مما حققوه من إنجازات فكرية تعكس تألق عقولهم وأصالة أنظارهم."(١)

"النفس الإنسانية تنطوي على توق فطري إلى كائن عظيم تنسب إليه صفات الكمال، وتنشد عنده الحماية والأمن والطمأنينة، وهذا الشعور يجده كل إنسان في نفسه في لحظات الضعف والفزع، وعندما يشارف الهلاك، مهما بسط به الغرور في أوقات السعة وزمن الهدوء."(٢)

والرؤية الإسلامية مؤسسة على الخطاب الرباني، وذلك الخطاب دعوة لتحقيق غايات إنسانية مشتركة بين بني البشر، تتلخص في إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وكل هذه الأمور، يعود نفعها على البشر الذين وجه إليهم الخطاب، وبذلك الخطاب "المتحرر من أية مكاسب قومية أو ذاتية، المتجهة لصالح الآخر، بينما تحققت هذه الرسالة في الأمة القطب التي تحملها قليلة الاستيعاب للآخرين وحضاراتهم وأنساقهم الثقافية، وحولتهم إلى شركاء في حمل الرسالة متساوين في حمل الرسالة."(٣)

---

(١) العطاس، **مداخلات فلسفية في العلمانية والدين**، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٢) النجار، عبد المجيد. **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث جدلية النص والعقل والواقع**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٤١.

(٣) العلواني، **الأزمة الفكرية ومناهج التغيير**، مرجع سابق، ص١١٧.

إن الرؤيةَ إلىٰ العالم المؤسسةَ علىٰ هذا الخطاب الرباني، لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها، بل هي رؤية جمعت بين الروحانيات وبين الماديات، تخاطب القلب والوجدان، كما تخاطب العقل الإنساني، إنها تتصف بالعالمية؛ لأنها لا تقدم سوىٰ لمن أراد أن يتمثلها القرآن الكريم، ليقرأ ويتدبر آياته، لتقوده إلىٰ إدراك خالق الكون والوجود، وتقوده للتفاعل مع معطيات الكون، تفاعلاً إيمانياً، عكس الفلسفات المادية، وسياسات الإكراه التي تمارسها اليوم العولمة، التي تستخدم آلاف المعدات المادية، مستفيدة من التقدم التكنولوجي الذي تعرفه هذه المجتمعات، ولا سيّما وسائل الاتصال الحديثة في فرض رؤيتها المادية العلمانية علىٰ العالم الإسلامي بالقوة والإكراه، لتصل إلىٰ حد استخدام القوة العسكرية؛ إذْ أبادت أمة لأجل الدعوة إلىٰ الديمقراطية وإسقاط الديكتاتورية.

في حين تكتسب الرؤية الإسلامية للعالم أرضاً جديدة ويعتقنها أناس جدد من خلال قراءة القرآن الكريم؛ لأنهم يجدون فيه الإجابات النهائية الكلية التي تخالج نفوسهم، نتيجة للفطرة التي جبلوا عليها، ومن خلال معنىٰ الآية الكريمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فإذا كان لا إكراه في الدين، فما بالك الإكراه في السياسة والاقتصاد والثقافة، وتسعىٰ المجتمعات الغربية أيضاً إلىٰ تنميط البشرية علىٰ ثقافتها، وتشويه رؤاهم للعالم، فتم إلصاق الإرهاب والعنف بالمسلمين، واستنتجوا أن الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم التي يحملها المسلمون، هي التي تدفعهم إلىٰ العنف؛ لذلك تعمل دوائر المكر الغربي ليل نهار لتزييف حقائق هذه الرؤية، مستخدمة كل الوسائل والأدوات، إن أمتنا في مرحلة تحدّ حضاري، يجبرها علىٰ إعادة التأسيس المعرفي لمشاريعها الفكرية والنهضوية انطلاقاً من هذه الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم .

**ث- الثبات خاصية حتمية للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم:**

نأتي للخاصية **الأخيرة** من خصائص الرؤية الإسلامية المتعلقة بما سبق ذكره من خصائص العالمية والشمولية، وهي خاصية الثبات، فهذه الرؤية لا تعرف

التبديل والتغيير؛ لأنها مؤسسة على المصدر الرباني القرآني، فهي صالحة لكل زمان ومكان، وإجاباتها نهائية ومطلقة، يقينية وصادقة، وليست ظنية أو وهمية، إنها على عكس الرؤى التي يكون العقل البشري مصدرها، فتكون عرضة للتغيير والتبديل من عصر إلى آخر.

ويدل ثبات الرؤية، على أنها رؤية يستنبطها العقل الإنساني من الوحي الرباني، وهذه الرؤية الإسلامية إلى العالم رؤية معرفية، تعتمد على الحواس، ممثلة في الفعل الإبصاري والسمعي في إدراك ملكوت الله تعالى، وهي معرفة روحانية، تعتمد على الحقائق التي أتى بها الوحي في ما يخص عالم الغيب، الذي لا يمكن للعقل البشري ووسائله إدراكها مهما أوتي من طاقة ومن قوة ومن حجج وبراهين؛ لأنه جزء من الوجود، ومنطقيًّا كيف للجزء أن يحيط بالكل؛ لذلك فقد كفى الوحي العقلَ في هذه المسألة الغيبية التي ليس له سوى التسليم بها، حتى يكسب الوجود غايته.

ما تحمله رؤية العالم من حقائق عن الكون والحياة والله والإنسان والوجود، هي حقائق مطلقة، وليست حقائق عارضة، يمكن أن تتغير أو تتبدل، فمثلاً مرت الألوهية في الحضارة الغربية بمراحل عديدة، بدءاً من عقيدة التثليث مع المسيحية التقليدية التي كان يمثلها الفكر المدرسي في أوروبا، ثم تطورت إلى الواحدية، وتعني إقصاء الإله من مجالات الحياة العامة على يد البروتستناتية في عصر النهضة، إلى إعلان موت الإله في عصر التنوير؛ إذْ أصبح الإنسان مركز الكون ومرجعيته، وصولاً إلى الفلسفات العدمية التي اعتبرت الله مجرد خرافة وهمية أنتجها العقل البشري، ليتغلب على الظواهر الطبيعية.

وبما أن العقل العلمي قد نازع الطبيعة وتغلب عليها، فإنه آن الأوان لرد هذا الإنسان إلى المادة التي أنتجته، وأنه جزء من الوجود لا يتسامى عليه، بل هو حال في الطبيعة هذه التطورات في فكرة الألوهية تصاحبها التقلبات العقلية التي تعرفها البشرية، في حين الرؤية الإسلامية إلى العالم في عهد النبوة أو في زماننا أعطت الفكرة نفسها عن الإله، فلا تتبدل أو تتغير، على الرغم من تعاقب الليل والنهار، وتبدل الأحوال والعمران، وعلى الرغم من نشأة الدول وزوالها؛ لأنها رؤية مستندة

لمرجعية دينية متجاوزة حدود العقل البشري.

ونحن في العالم الإسلامي لسنا في حاجة إلىٰ إعادة الخوض في هذه المسائل التي خاض فيها علماء الكلام في القرون السابقة، بل نحن في حاجة إلىٰ تفعيل هذه الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم؛ لصياغة نموذج معرفي إسلامي، نولد منه العلوم والمعارف المختلفة، يقول سيد قطب: "هناك ثبات في مقومات التصور الأساسية، وقيمته الذاتية فهي لا تتغير ولا تتطور، حينما تتغير ظواهر الحياة الواقعية، وأشكال الأوضاع العملية ..فهذا التغير في ظواهر الحياة والأشكال والأوضاع، يظل محكوماً بالمقومات والقيم الثابتة لهذا التصور."[1]

هناك ملحوظة، ربما يتساءل بعضهم قائلاً: هناك تغير في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم التي يحملها الأفراد المسلمون؟ ونقول: هذا صحيح نسبيًّا؛ لأن هذه الرؤية ثابتة ما دامت متصلة بالوحي، ويصيبها الغبش والانحراف إذا ابتعدت عن هذا المصدر؛ إذْ تصبح مثلاً الرؤية إلىٰ العالم التي يحملها المسلمون اليوم عن الألوهية والكون والحياة مستمدة من الثقافة العامة أو الشعبية علىٰ حد تعبير الأنثربولوجيين، والتي تشكلت من جملة عوامل من بينها صحة القراءة التأويلية للنص الديني. إنّ اختلاطها وامتزاجها بالثقافات الفرعية الواردة إلينا من المجتمعات الأخرىٰ، سواء بعد التحريف الناجم عن الاطلاع علىٰ فكرة الألوهية في الديانات التوحيدية، التي عرفت تحريفاً بشرياً كالمسيحية واليهودية، أو الاطلاع علىٰ منجزات العقل الغربي في مجال الطبيعيات، وما تركته من أثر في عقول المسلمين؛ إذْ لجأ الإنسان إلىٰ البحث عن أدلة وبراهين لتأكيد أن الله موجود في هذا الكون، باستخدام العقل والحواس دون سواهما؛ مما أوقعَ كثيراً منّا في الشك في ثبات وصلاحية الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم.

لذلك؛ فالعقل الديكارتي الذي غوىٰ العالم، ظل يبحث عن الحقيقة من منطلق ذاتي، ومن إيمان راسخ بالعقل ووسائله المنهجية، مما جعل الرؤية الإسلامية

---

(١) قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، مرجع سابق، ص٧٥.

إلىٰ العالم تعاني من حصار معرفي رهيب، حجب العقل الانساني عن تبصرها وإدراكها، "إن الثبات في مقومات التصور الإسلامي قيمة، فضلاً علىٰ أنه امتداد للنظام الكوني، وهو الذي يضمن للحياة الإسلامية خاصية الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت، فيضمن للفكر الإسلامي وللحياة الإسلامية مزية التناسق مع النظام الكوني العام، ويقيه شر الفساد الذي يصيب الكون كله لو اتبع أهواء البشر، بلا ضابط من قاعدة ثابتة لا تتأرجح مع الأهواء."[1]

**٣- أبعاد الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم:**

بعد أن أكدنا أربعة خصائص تتصف بها الرؤية الإسلامية للعالم، ممثلة في الألوهية، والشمولية والعالمية والثبات، ننتقل إلىٰ إعطاء أبعاد هذه الرؤية، ونزعم أن التوحيد أهم مقوم لها، ويعدّ مركزها المعرفي والمنهجي، والذي تتأسس عليه بقية الأبعاد الأخرىٰ، وليس التوحيد بمعناه اللاهوتي القهري الغيبي، بل بمعناه المعرفي الذي تتأسس عليه رؤية الوجود والكون والحياة، وبوصفه ناظماً منهجيًّا معرفيًّا، تتولد منه جملة الحقائق، وتتولد منه مختلف المعارف الإنسانية.

التوحيد المبدأ المعرفي الرئيس للرؤية الإسلامية والمنطلق الأساسي لها، وليس خاصية أو ميزة عرضية، بل حجر الأساس في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، ويترتب عليه جملة من المبادئ المعرفية الأخرىٰ، كوحدة الخلق ووحدة الحقيقة، ووحدة الخالق، إنه المبدأ الذي تصدر عنه بقية المبادئ والأبعاد الإنطولوجية والإكسيوجية والكسمولوجية للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم؛ لذلك سنبدأ به ثم نتناول بقية الأبعاد.

**أ- التوحيد في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم:**

التوحيد أهم مرتكز معرفي بالنسبة للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم فما حقيقته؟ "تهدف فكرة التوحيد من الناحية الميتافيزيقية إلىٰ إثبات وحدانية الله؛ إذ هو العلة

(١) قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، مرجع سابق، ص٨٧.

الوحيدة التي تدخل في تكوين الظواهر، وهو الذي يحكمها بما يتصف به من القدرة المطلقة والبقاء والإرادة والعلم...الخ، ومع ذلك فإن الإسلام تُعرَضُ عقيدته الغيبية الخاصة بطريقة أكثر مطابقة للعقل وأكثر تدقيقاً، وفي اتجاه أكثر روحية."[1]

التوحيد هو المبدأ الأساسي في الرؤية الإسلامية إلى العالم، "لأنه الإجابة الكونية الفطرية السوية للبعد الروحي للإنسان في فهم ذاته مبتدأ ومآلاً، وهو سقف المنطق الإنساني في فهم أبعاد الحياة والوجود، وما وراء الحياة والوجود،"[2] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

بعد أن أكدنا أن إحدى خصائص الرؤية الإسلامية الألوهية، والتي تعني أن هناك الله خالق هذا الكون، تأتي فكرة التوحيد لتضع الرؤية الإسلامية إلى العالم على مرتكز معرفي خاص؛ لأن بعض رؤى العالم البشرية ربما تتناول فكرة الألوهية وتقر بها، وهناك بعض الأديان التوحيدية المحرفة أو الديانات الوضعية التي تقر بفكرة الألوهية، إلا أنها لا تقر بفكرة التوحيد، أي بمعنى خالق واحد لهذا الكون، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤]؛ لذلك في الرؤية الإسلامية إلى العالم هناك موجد للكون واحد أحد لا شريك له.

تعدّ دراسة الفاروقي من الدراسات المعرفية التي اهتمت بالتوحيد؛ إذْ ينطلق الفاروقي في دراسته الموسومة بـ (التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة)، من مفارقة كون الأمة الإسلامية تعتلي سلم الأمم من حيث الإمكانات المادية والموارد البشرية، إلا أنها تعاني من انحطاط وتخلف حضاري رهيب؛ ما جعل بقية الأمم تتكالب عليها، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وانتقالها من أمة يفترض أن تكون

(١) ابن نبي، **الظاهرة القرآنية**، مرجع سابق، ص٢٠٠.

(٢) أبو سليمان، **الرؤية الحضارية الكونية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، مرجع سابق، ص١١٥.



obeikandi.com

شاهدة على غيرها، إلى أمة تشفق من حالها الأمم، ومن أمة ذات إسهام حضاري في الماضي، إلى أمة ذات إسهام هزيل ومتواضع في عصرنا.

ويرى الفاروقي أن الأمة الإسلامية بحاجة إلى تجاوز هذه المفارقة بتفعيل سنة الله تعالى في تغيير السياق تجاه التوحيد الخالص، بوصفه الشرط المركزي لتغييرها، فبعد عرضه لحركات الإصلاح التي عرفتها الأمة، في القرنين الأخيرين، ولا سيّما بعد تعرضها للاستعمار الغربي الذي احتل أرضها ونهب خيراتها، قدم رؤية نقدية لها، ويرى أنها اهتمت بالجوانب المادية وأهملت الجوانب الروحية؛ مما أوصل معظم مشاريعها إلى الإفلاس، ولخص أمر التغيير السنني الرشيد والفعال كله في مقولة: "إن الأمة بحاجة إلى حركة تغيير إصلاحية نابعة منها تنبت في عمقها وتتحلى بالوسطية، وتعير الجوانب الروحية اعتباراً كبيراً، وتعاير البعد المادي ذاته من مرجعية توحيدية، تتجاوز مستوى النخبوي إلى مستوى تأهيل الأمة كلها لتمثل مشروع الإصلاح الحضاري."(١)

وأكد أن الإصلاح يجب أن يتم تحت مظلة التوحيد الذي يعدّ مقولة معرفية رئيسة، بل وعدّه الفاروقي مبدأً للمعرفة، ويتضمن مقدمات إبستيمولوجية، تتأسس عليها كل العلوم؛ طبيعية كانت أو اجتماعية؛ إذْ وضحها كالآتي:

- لا شكوكية ولا إيمان المسيحيين: يهاجم الفاروقي مبدأ الشك المعرفي الذي يسود الأوساط الغربية بمثقفيها وعوامها، معللاً سبب انتشاره إلى الانتصار الذي حققه العقل التجريبي على العقل الديني، والعقل الديني برأيه هو العقل الملتزم بتعاليم الكنيسة ورؤيتها.(٢)

ويرى الغربيون أن المسيحية فقدت منذ أمد بعيد قدرتها على تعليم الحقيقة؛ لأن موقفها عقدي مبني على فرضيات معينة، لم يتم بنظرهم إخضاعها للتجريب

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي. **التوحيد مضامينه على الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٦م، ص٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

والفحص النقدي، هذا يدفعهم لتعميم فكرة مفادها: بما أن كل المعرفة الدينية عقدية بالضرورة، فإن كل طرق الوصول إلىٰ الحقيقة يجب أن تكون تجريبية، وتستمد دليلها النهائي من الواقع الحسي كما تكشف عنه التجربة المنضبطة، وأعطىٰ تعريفاً للمفهوم العقدي في رأي التجريبيين: الإيمان برأي من الفروض غير أنه قابل للإثبات بالتجربة.[1]

عرج الفاروقي علىٰ مفهوم الإيمان الذي يرىٰ أن الأدبيات الفلسفية واللغوية الغربية تحاول جاهدة تعميم تعريفها للإيمان، انطلاقاً من خبرتها الإنسانية والمعرفية، لهذا نبه الإسلام المعاصر إلىٰ الاحتراز في استخدام الإيمان كما تستخدمه الأدبيات الغربية، وأعطىٰ تعريفاً للإيمان بأنه: "اعتراف محرر تماماً من أية ظلال شكوك الاحتمالية والتخمين واللايقين ... الإيمان هو شيء ما يحدث للإنسان حينما تواجهه حقيقة شيء ما، وتدفعه لصحة ما لا شيء لا يرغب فيه، وهو من طبيعة مشابهة للاستنتاج الهندسي الذي يسلم الإنسان انطلاقاً من مقدماته المنطقية الصحيحة والحتمية."[2]

يرىٰ الفاروقي أن الإيمان الإسلامي علىٰ العكس من الإيمان المسيحي، فهو حقيقة توصل العقل إلىٰ اليقين بها، وليس تسليماً بلا تمحيص يعتمد علىٰ سذاجته وقابليته لسرعة التصديق:

- الإيمان الإسلامي مقولة معرفية، "إن الإيمان برأي الفاروقي ليس مجرد مقولة أخلاقية بل هو مقولة معرفية، ولباب التوحيد بوصفه مبدأ معرفة: هو الإقرار بأن الله تعالىٰ هو الحق، وأنه واحد أحد لا شريك له، ويستبطن هذا الإقرار وجوب رد أمر البت في كل خلاف وفي كل شك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وبأنه لا دعوىٰ مستعصية علىٰ التقييم والبت القاطع فيها، فالتوحيد إقرار بأن الحقيقة قابلة لأن

(١) المرجع السابق، ص٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩١.

تعرف، وأنه بوسع الإنسان أن يصل إليها."[١]

- وحدانية الله ووحدة الحق، "الإقرار بوحدانية الله بمثابة إقرار بالحق وبوحدانيته، فوحدانية الله تعالىٰ ووحدة الحقيقة أمران متلازمان برأي الفاروقي، وبرأيه يشكل التوحيد كمبدأ منهجي من ثلاثة مبادئ معرفية أولها: رفض كل ما لا يتماشىٰ مع الحقيقة، والثاني: نفي التناقضات النهائية، الثالث: الانفتاح علىٰ الدليل الجديد، وعلىٰ دليل المخالفة."[٢]

- التسامح، "التوحيد إقرار بأنه لا إله إلا الله، ومعنىٰ ذلك أن الله تعالىٰ هو المصدر الأسمىٰ للخير كله، والقيمة كلها."[٣]

يجب أن يعي الإنسان دائماً في تصور الفاروقي أن كل ما يقدره الله تعالىٰ، إنما يقدره لغاية غيره، والقول بعكس ذلك نفي للتوحيد، ويرىٰ أن التوحيد يرشدنا إلىٰ التفاؤل علىٰ الصعيدين المعرفي والأخلاقي، "يراد بالتفاؤل كمبدأ معرفي، قبول الحاضر إلىٰ أن يقوم الدليل علىٰ زيفه، أما المراد كمبدأ أخلاقي فهو: قبول المرغوب إلىٰ أن غاية انتقاء تلك الصفة عنه، ويسمىٰ المبدأ الأول: مبدأ التصحيح، ويسمىٰ الثاني: مبدأ اليسر...ومن هذين المبدأين يثريان خيرية الإنسان وحياته، ويمكننا من دفع ثقافته وحضارته قدماً علىٰ الدوام."[٤]

أما عن مفهوم التسامح، بوصفه مبدأً منهجيًّا متضمناً في جوهر التوحيد، فيبقىٰ برأيه أن الله تعالىٰ لم يدع أمة من الأمم إلا وبعث فيها رسولاً من أنفسهم؛ ليعلمهم أن لا إله إلا الله، ودعاهم إلىٰ عبادته وتوقيره.

"كما نجد أن مبدأ التوحيد الخالص، وما يترتب عليه من توحيدية الخلق التكاملية، هو الأساس الذي تبنىٰ عليه الرؤية الإسلامية معنىٰ الحياة والكون

---

(١) المرجع السابق، ص٩١.

(٢) المرجع السابق، ص٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص٩٨.

(٤) المرجع السابق، ص٩٨.

البديع، وعلىٰ هذا المبدأ الأساس، ترتكز وتنطلق مبادئ هذه الرؤية ومفاهيمها في غائية الوجود وأخلاقيته"[1]، إن التوحيد لا يختص بالجانب الاعتقادي والعبادي فقط، بل تترتب عليه جملة من المبادئ المعرفية التي تستخدم في توليد المعرفة في مختلف المجالات الإنسانية .

**ب- البعد الأنطولوجي للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم:**

يتأسس البعد الأنطولوجي في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم علىٰ فكرة ثنائية الوجود: عالم الغيب وعالم الشهادة، وعلىٰ فكرة ثنائية: خالق/ المخلوق، فيعتقد الإنسان في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم بوجود عالمين، أحدهما مادي يدركه بالإحساس والوسائل الإدراكية العقلية، هو عالم الشهادة، وعالم غيبي يدركه عن طريق الوحي الرباني ولا مجال لاشتغال العقل فيه، سوىٰ التسليم والتصديق به، ومن ثمّ الرؤية الإسلامية وهي رؤية متجاوزة للعالم المادي، "تفسر العقيدة الإسلامية الوجود علىٰ أنه ثنائية ذات طرفين الأول الله جلّ جلاله، والثانية ما سواه من عناصر الكون جميعاً، وهو المعبر عنه بالعالم في اصطلاح الفكر الإسلامي،"[2] يقول تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن: ٢٦ – ٢٨].

"وهذا أن الطرفين في ثنائية الوجود طرفان بعيدان في الحقيقية الذاتية؛ إذْ يتصف الله تعالىٰ بالكمال المطلق، ولا يستطيع العقل البشري أن يعلم كنه حقيقته شيئاً، وقصارىٰ ما يدرك منه ثبوت صفات الكمال له، في حين يتصف العالم بصفات النقص والدون إزاءه، وهو ذو طبيعة معقولة، في إمكان العقل البشري إدراكها ويتمثل حقيقتها."[3]

---

(١) العلواني، **الأزمة الفكرية ومناهج التغيير**، مرجع سابق، ص١١٤-١١٥.

(٢) النجار، **الخلافة بين الوحي والعقل**، مرجع سابق، ص٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص٤١.

لا تعني مطلقاً هذه الثنائية في الوجود من منظور الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، الانفصال التام لأحدهما عن الآخر؛ إذْ إن الإله خلق الكون وتركه وشأنه، كما عبرت عنه الفلسفات اليونانية الأرسطية؛ إذْ دفع الله العالم إلىٰ الحركة أول الخلق، ثم تركه وشأنه، دون أن يعلم من أمره شيئاً، سوىٰ الكليات من شؤونه، أو كما صور نيوتن العالم أنه آلة ميكانيكية صنعها الله وتركها، فإننا نجد في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم أن هناك غائية من وراء خلق هذا الكون، هي التي تجعله في صلة دائمة مع الله، وأنه خلقه من عدم، ويعلم كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود، بل وهو الذي بقوته وقدرته يضمن الاتساق والانسجام بين عناصر هذه الوجود، وهو القائل: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦١﴾ [يونس: ٦١].

علاقة الوجود العالمي بالله هي علاقة علة بمعلول؛ لأن الله هو خالق هذا الوجود العالمي، وثنائية الوجود العالمي تتفرع إلىٰ ثنائية عالم الغيب وعالم الشهادة، الأول عالم الغيب، لا يستطيع العقل البشري مهما أوتي من وسائل في المعرفة والفكر أن يدركه، ذلك ما جاء الإخبار عنه عن طريق الوحي الرباني، "إنه لو لم ينقل الله ذاته إلينا تلك المعرفة المتعلقة بالأشياء غير قابلة للملاحظة، فإنه من المستحيل لنا أن نحصل علىٰ تلك المعرفة من خلال جهودنا الذاتية، ولقد نقل الله إلينا تلك المعرفة، لعدله ورحمته بخلقه، علىٰ القدر الضروري والكافي وبأسلوبه يتم فهمه بسهولة."(١)

أما عالم الشهادة، هو العالم الحسي المادي الذي تدركه الأبصار والعقول البشرية، ويمكن للإنسان أن يصل إلىٰ القوانين التي تحكمه كما في العلوم الطبيعية، لترشده إلىٰ أن لهذا العالم علة أوجدته، وهو الخالق تبارك وتعالىٰ، وبالطبع لن يكون الموجد لهذا العالم من طبيعة هذا الوجود نفسه، بل متجاوز له إرادة وقوة ومشيئة؛ لذلك هذه الثنائية الأنطولوجية في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، تجعل

(١) صديقي، محمد معين. **الأسس الإسلامية للعلم**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٨٩م، ص٤٢.

الإنسان يبني عليها معارفه النظرية والفلسفية والعلمية، فعلى عكس الفلسفات المادية الإلحادية التي تصور الوجود على أنه أحادي مادي صلب ندركه عن طريقة الملاحظة المباشرة، ولكن تعجز أن تقدم تفسيرات نهائية لهذا الوجود ولا تسأل عمّن أوجده؛ لذلك في إسلامية المعرفة طرح منهج الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣﴾ [الأنعام: ٧٣].

**ت- البعد الكسمولوجي في الرؤية الإسلامية إلى العالم:**

تنطلق الرؤية الإسلامية إلى العالم من رؤية خاصة للكون، مصدرها الوحي الرباني؛ إذْ نجد العديد من آيات القرآن الكريم تصف الكون وخصائصه، وتصوره تصويراً دقيقاً، كدلالة على عظمة الخالق؛ لذلك أول حقيقة في الرؤية الإسلامية إلى العالم أن الكون من صنع الله تبارك وتعالى، وأنه هو من أوجده من عدم، ومن غير مادة سابقة، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ [الفرقان: ٢].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢﴾ [النور: ٤١ - ٤٢].

إذا كان أرسطو قد صور الألوهية على نحو قاصر ومعيب، فإن الحق جل شأنه كشف عن علمه الشامل بالكون وعن خلقه من العدم، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

إن من أبرز خصائص الرؤية الإسلامية أن الكون حقيقة وليس وهماً، "وقد وجد قبل أن يوجد الإنسان، ولم يخلقه الله لمجرد اللهو، وأنه من خلال الأشياء المختلفة والكائنات الحية، والأحداث والعمليات، تجلت صفات الله العظيمة في أنه الخالق، الرازق والمصور الرحمن العدل المميت الغفور الشكور..."[1] يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ ٧٣﴾ [الأنعام: ٧٣].

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

تحث آيات عدّة في القرآن الكريم الإنسان على التدبر والتفكر في الكون بوصفه ملكوتاً لله تعالى، ودليلاً ماديًّا على وحدانية الله وعلى قدرته على الخلق، فمنها ما جاء في معنى أفلا يتدبرون، ومنها ما جاء في صيغة أفلا تعقلون، ومنها ما جاء في صيغة أفلا يتفكرون، فأول آلية معرفية حسية دعا الوحي الإنسان لاستخدامها هي الإبصار، بمعنى الرؤية والتأمل في الوجود، بمفهومنا المعاصر الملاحظة العلمية، التي تنطلق من فرضيات صاغها العقل البشري، فما بالك بيقينيات صاغها الوحي الرباني عن الكون، وعن نشأته ونوعه، وثرائه، ولا نهائيته.

إن العقل الإسلامي مدعو في الرؤية الإسلامية إلى العالم إلى ممارسة التأمل التفكري، وإلى الكشف عن النواميس التي تحكم هذا الكون، ليصفه ويتعلم منه، بوصفه من الأفعال الإيمانية التي تختص بها العقيدة الإسلامية، وليس فضولاً يحاول إشباعه، بل هو مطالب قبل غيره بالنظر إلى السماء وإلى النجوم والكواكب والمجرات والفضاء، ليتأكد أن من وراء هذه الصنعة صانعاً، ليس كمثله شيء، لا تدركه الأبصار، وهو على كل شيء قدير، "ونخلص من ذلك إلى أن الذهول عن الكون ودراسته، باب إلى الجهل والضلال، وأن الإسلام يبني المعرفة على البصر العميق بالكون، والبحث المستمر فيه، وأن انطلاق العلم بعيداً عن هذا المجرى، انحراف إغريقي وليس منهجاً إسلامياً، وأن الذين مالوا مع هذا الانحراف اضطروا الإسلام ورسالته."(١)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم: ٢٢].

مبدأ الغائية من خلق الكون، إن الله لم يخلق الكون عبثاً، وإنما خلقه لغاية محددة، وهي تسخيره للإنسان ليحقق الإعمار والاستخلاف في الأرض، على مقتضى التوحيد والعبودية لله، وليس ليدمره أو يخربه في الاستعمالات المختلفة؛ فالإنسان مسؤول من هذا المنطلق على الكون ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ ﴿٤﴾ ﴾

(١) الغزالي، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، مرجع سابق، ص ٥٥.

[الرعد: ٤].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦].

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يتعامل التصور الإسلامي مع كون له وجود واقعي، يختلف بطبيعة الحال عن وجود الله سبحانه، ولكن له وجود له خصائص مدركة من واقع هذا العالم، وليست منتزعة من تصورات ذهنية مجردة، ولا من دعاوىٰ يمليها الهوىٰ من غير دليل."[1]

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ١-٥].

### ث-البعد الإكسيولوجي في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم:

يتعلق البعد القيمي للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم بمفهوم الإنسان، بوصفه قيمة أخلاقية في حد ذاته، إذا كانت ثنائية الوجود تعنىٰ أن هناك خالقاً ومخلوقاً، فإن أبرز مكون في الوجود المادي هو الوجود الإنساني، بوصفه أرقىٰ المخلوقات في هذه الرؤية؛ لأنه خليفة الله في هذا الوجود، وأول مسلمة في الرؤية الإسلامية، هي طبيعة أو أصل التكوين الخلقي الإنساني، فالإنسان مخلوق من طين، وفيه نفخ رباني، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

إن أهم صفة تميز الإنسان في الرؤية الإسلامية، هي أنه مخلوق، ويترتب عليه مبدأ الصلة بالخالق، فهو لم يخلق عبثاً، وتعدُّ الرؤيةُ الإسلامية الإنسانَ مركز الكون ومحوره، وهو متسامٍ علىٰ الوجود، علىٰ عكس الفلسفات المادية، التي تعدّ الإنسان

(١) قطب، **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، مرجع سابق، ص١٧٨.

كتلة مادية تنتمي إلى هذا العالم المادي وحالة فيه، فحقيقة الخلق الإنساني في الرؤية الإسلامية، هي حقيقة روحية غيبية، وليست حقيقة مادية بحتة؛ لأن الإنسان هو مناط التكليف، وهو مناط الاستخلاف في هذا الوجود، ولأنه يمثل خليفة الله في هذا الكون، وكل ما خلق له، من منطلق التسخير له.

تعدّ الرؤية الإسلامية الإنسان كائناً أخلاقيًّا، وليس كائناً ماديًّا فقط، وأنه ثنائي التركيب (مادة وروح)؛ مما يحتم عليه في مجال المعرفة أن ينهل من مصدرين في تشكيل المعرفة وتوليدها، عن طريق العقل بقراءة نواميس الكون واكتشافها، وعن طريق الوحي؛ ليدرك الأبعاد الغيبية لأنها محجوبة عنه، ومن ثمّ معرفته تركيبية، تجمعُ بين معرفة عالم الغيب ومعرفة عالم الشهادة، وليست واحدية مادية في اتجاه واحد.

تعد الرؤية القيمية للوجود الإنسان مسؤولاً أخلاقيًّا عن الطبيعة، ومن منطلق التسخير الرباني، لا يقع الإنسان في الرؤية الإسلامية إلى العالم في عداء مع الطبيعة أو في صراع معها، كما تصورها الفلسفات العلمانية الإلحادية، التي ترى أن من أهم مبادئ التنوير التغلب والسيطرة على الطبيعة وإخضاعها، إلى أن وصل الأمر بالإنسان الغربي إلى تدميرها، لتحقيق منافعه وغاياته.

إن الرؤية الإسلامية إلى العالم، هي رؤية قيمية للوجود، فكل ما في الكون يخضع للمبادئ الأخلاقية في التعامل معه، قبل مبدأ تحقيق المصالح والمنافع، فالعلاقة القيمية التي تحكم العلاقات بين أفراد النوع الإنساني، "مقتضى المسلمة الأولى للأخلاق الإسلامية: أنه لا إنسان بلا أخلاق، فلا يخفى أن الأخلاق الحسنة صفات مخصوصة الأصل فيها معان شريفة أو قل قيمٌ عُليا، كما لا يخفى أنه ليس في كائنات هذا العالم مثل الإنسان تطلعاً إلى تحقيق بهذه المعاني والقيم، إذ يكون له وصف الإنسانية على قدر ما يتحقق فيه منها، فإذا زادت هذه المعاني والقيم زادت هذا الوصف وإذا نقصت نقص."[1]

يترتب على هذه المسلمة حقائق ثلاثة، "أن هوية الإنسان أساساً ذات طبيعة

---

(١) عبد الرحمن، طه. **سؤال الأخلاق، الإسهام النقدي للحداثة الغربية**، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٤٧.

أخلاقية، والثانية أن هوية الإنسان ليست مرتبة واحدة وإنما مراتب متعددة، فقد يكون الواحد من الجماعة إنساناً أكثر أو أقل من غيره فيها، والثالثة أن هوية الإنسان ليست ثابتة، وإنما متغيرة، فيجوز أن يكون الفرد الواحد في طور من أطوار حياته إنساناً أكثر أو أقل في طور سواه."[١]

أخبر سبحانه وتعالىٰ بوحدة أصل الإنسانية في جملة من آيات كتابه، منها قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]، "فالإنسانية علىٰ امتداد الزمان والمكان، واختلاف الألسنة والأعراق والأوان، تؤوَّل بمقتضىٰ هذه الآية إلىٰ أصل واحد، وعن النفس التي منها تناسلت فروعها، ويجمع بين هذه الفروع الإنسانية علاقة أصلية ثابتة، اقتضاها الأصل الموحد، وهي علاقة الرحم الآدمي."[٢]

تشير جميع المعاني اللغوية في أصولها القرآنية إلىٰ أن الكون كله قائم علىٰ نظام تقوم به أشياؤه وظواهره، وأن حياة الإنسان في الكون تقوم علىٰ منظومة من القيم، تحدد تصوراته وعلاقاته وأعماله الظاهرة والباطنية، كما أن رؤية العالم عند المسلم تتضمن نظاماً في الاعتقاد، تنشئ تصورات الإنسان وعباداته، ونظاماً في المعرفة ينشئ التشريعات والعلاقات، فكذلك تضمن هذه الرؤية نظاماً للقيم تحدد واقع السلوك والعمل.[٣]

## ثانياً: النموذج المعرفي الإسلامي: المفهوم والخصائص

لكل نسق حضاري نموذجه المعرفي الخاص، الذي يتأسس علىٰ رؤية محددة إلىٰ العالم، تجيب تلك الرؤية عن الأسئلة النهائية المتعلقة بالطبيعة، والكون والإنسان والوجود والحياة، ومن هذا المنظور، تعدّ الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم

(١) المرجع السابق، ص١٤٧.

(٢) رفيع، محماد بن محمد. "المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني"، **مجلة إسلامية المعرفة**، بيروت: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س١٤، ع ٦٦، (٢٠١١م)، ص١١٩.

(٣) ملكاوي، فتحي حسن. "التأصيل الإسلامي للقيم"، **مجلة إسلامية المعرفة**، بيروت: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س١٤، ع٥٤، (٢٠٠٨م)، ص٧٠.

بمثابة الجانب الاعتقادي للنموذج المعرفي الإسلامي، الذي يتشكل انطلاقاً منها وليس هو عينها، كما يتصور بعضهم، ومن مهمة إسلامية المعرفة بوصفه مشروعاً فكريًّا ومنهجيًّا، تحويل تلك الرؤية إلىٰ العالم المبنية علىٰ الوحي الرباني إلىٰ نموذج معرفي، يزود الإنسان المسلم بكل وسائل المعرفة وأدواتها، التي يوظفها في فهم العالم والوجود، واكتشاف الحقائق والقوانين التي تحكم العالم المادي، وكذلك من مهمة إسلامية المعرفة الربط بين الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم ونظرية المعرفة التي تتولد عنها، "إن إسلامية المعرفة بوصفها رؤية تنبثق من عقيدة كلية عن الإنسان والكون والحياة، وكذلك تنبثق عن الإجابة عن الأسئلة الكلية والنهائية المتعلقة بالوجود والقيم والمعرفة، وهي بوصفها منهجية ينبثق منها نظام معرفي وإجراءات ومبادئ."[1]

ملحوظة هنا، لكي يحدث الاتساق والانسجام في بنية العقل الإسلامي المعاصر، يجب أن لا يفصل بين رؤيته إلىٰ العالم وبين وسائله الإدراكية والمعرفية، وإلا سيقع من الناحية العملية في التناقض، بسب استخدام الأدوات الإجرائية للنموذج المعرفي الغربي الذي تختلف رؤيته المادية العلمانية الإلحادية عن تصورات الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم؛ مما سيوقعه حتمياً في إرباك منهجي، ولا يتمكن من توليد المعارف والعلوم، بقدر سعيه إلىٰ التوفيق بين أدوات النموذج المعرفي الغربي وبين رؤيته الإسلامية إلىٰ العالم، وفق منهج المقاربات أو المقارنات، فمحاولة العقل الإسلامي الدمج بين نموذجين، يستحيل معرفياً؛ لطبيعة التصورات التي يحملها كل منهما علىٰ حدة؛ واستهلالاً، سنقدم بعض التعريفات التي قدمها بعض المجتهدين في العالم الإسلامي للنموذج المعرفي الإسلامي:

## ١- مفهوم النموذج المعرفي الإسلامي:

نعتقد أن النموذج المعرفي الإسلامي يتأسس في جانبه الميتافيزيقي علىٰ

(١) محمد، علي جمعة. **تقديم كتاب، إسلامية المعرفة بين اليوم والأمس**، طه جابر العلواني، مرجع سابق، ص٧٠.

الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، التي وصفناها بالعالمية والشمولية والثبات، لكن هذه الخصائص لا تنسحب عليه؛ لأن النموذج لا يمكن أن يكون ثابتاً ولا شاملاً، فالنموذج اجتهاد إنساني، يقوم العقل بقراءة توليدية من النص القرآني – الوحي، ومن قراءة استقرائية للكون، فيكون النموذج قابلاً لتعديل والتغيير، حسب مقتضيات التطور التاريخي وتراكمات المعرفة .

ويتشكل النموذج من رؤية العالم، تلك الرؤية التي تتحول من تصورات اعتقادية إلىٰ تصورات معرفية، وتصبح الرؤية لها فعالية في مجالات الحياة الإنسانية؛ لذلك؛ قلنا: إننا في العالم الإسلامي نمتلك تصورات الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، لكنها فاقدة للفاعلية علىٰ أرض الواقع.

إن أكبر تجلٍّ للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم سيكون في الجانب المعرفي والعلمي، فيحول النموذج المعرفي التصورات عن الإنسان والإله والكون والوجود من عالم العقيدة إلىٰ عالم العقل، وتتحول بدورها هذه التصورات إلىٰ ممارسات معرفية منضبطة منهجيًّا، تدفع الإنسان إلىٰ البحث والتحري والتفكير، لإثبات تصوراته العقائدية بطريقة عقلية ومعرفية.

ويمكن أن نتلمس بعض مقدمات النموذج المعرفي في التراث الإسلامي، لكن لا يعني بالضرورة أن كل مقدماته صحيحة، وهي لا تحتاج سوىٰ لعملية الإحياء، وكأننا هنا رفعناه إلىٰ مصاف الوحي، وهذا خطأ منهجي كبير يجب علينا أن نتجاوزه.

إن المقدمات المعرفية للنموذج المعرفي الإسلامي لم تصغ بشكل نهائي، مع التذكير، أنه لم يبدأ التفكير في هذا البعد سوىٰ منذ ثلاثة عقود مع مدرسة إسلامية المعرفة؛ لذلك؛ نتفق مبدئيًّا أن هذه التعاريف التي نصوغها ليست نهائية بل هي محاولات، يجب أن تتلوها محاولات أخرىٰ، لتثبيت الجوانب المنطقية والمعرفية للنموذج المعرفي الإسلامي، ونزعم أنّ محكَّ هذه المقدمات وقدرتها نتأكد منها، عن طريق توليد المعرفة في العلوم الاجتماعية والطبيعية والإسلامية، ومن خلال

إبداع مناهج جديدة.

عرَّف ملكاوي النموذج على أنه جملة من العناصر المتكاملة التي تعطي لأي نظام معرفي هويته الخاصة ضمناً، وتجلعه متميزاً عن بقية النماذج الموجودة، بقوله: "يشير مفهوم النظام إلى مجموعة من العناصر التي تتكامل فيما بينها لتعطي للنظام هويته، إذ لا يعود النظام هو المجموع الجبري لهذه العناصر، وإنما تولد هذه العناصر، ونتيجة تكاملها وتداخلها وتفاعلها، خصائص جديدة لا يمكن تمييزها من النظر في العناصر فحسب، والنظام في هذا السياق هو منظومة من الأفكار التي يعطي تكاملها رؤية كلية وفهماً شمولياً للكون والحياة والإنسان."[1]

أخذ التركيب بين هذه العناصر المعرفية أكثر من تسمية، فهناك من سماه النموذج، وهناك من سماه النظام المعرفي، وغيرها من التسميات، "هذه المعادلة أو هذا التركيب بين مصادر المعرفة وطرق الوصول إليها يطلق عليه أحياناً النظام المعرفي، الضابط المعرفي، وثالثة النظام المعرفي ورابعة النموذج المعرفي، أو ما يطلق عليه في النسق الغربي الأوربي مفهوم البراديغم، وجميعها تشترك في حقل دلالي واحد، يشير إلى ذلك المركب الذي يشتمل على تحديد مصادر معينة للمعرفة، ويقيم العلاقات بينها، ويحدد تدرجها وهرميتها، ويعين في الوقت نفسه طرائق نقدها ومعايير هذا النقد، وأسس مشروعيتها ومبررات الاعتقاد عليها، والاعتقاد فيها أنها معرفة حقيقية، والرضا بنتائجها واستخدامها وتوظيفها...الخ."[2]

وهناك من يخلط بين مفهوم رؤية العالم ومفهوم النموذج المعرفي، "كذلك من الخلط بين النظام المعرفي والنموذج المعرفي من جانب، ورؤية العالم من جانب آخر، في حين أن رؤية العالم لا تمثل إلا الإجابة عن الأسئلة النهائية حول الله والإنسان والكون والحياة، ومن ثم تمثل أساساً للنظام المعرفي وقاعدة عليها يؤسس، ومنها ينطلق وليست هي النظام المعرفي، وان كان لا يخرج هو عنها فهي –رؤية العالم –

(١) ملكاوي، فتحي حسن. **طبيعة النظام المعرفي وأهمية البحث في موضوعه**، ضمن كتاب: **نحو نظام معرفي إسلامي**، مرجع سابق، ص٣٩-٤٠.

(٢) عارف، **مفهوم النظام المعرفي والمفاهيم المتعلقة به**، ضمن كتاب: **نحو نظام معرفي إسلامي**، مرجع سابق، ص٦٧.

الأصل وعليها ينبني النظام العرفي."[١]

أما مكونات النظام المعرفي فهي مجموعة من العناصر، فيقول منير: "يكون النظام المعرفي الإسلامي مكوناً من أربعة أبعاد وهي: الوحي والكون، والعقل الإنساني والتاريخ، ناظر هذه الأبعاد مستويات أربعة تمثل درجات الفعل، تعبر عن دور الممارسة في نظرية المعرفة وهي: الوعي والمادة، والتفسير والتأويل، والحدث في الزمان والمكان"[٢] ويعرفه محمد نصر عارف على، بقوله: "النظام المعرفي بوصفه حقيقة وجوهراً موجود في كل البنى المعرفية سواء أطلقنا عليه مسمى، أم ظل كامناً متسرباً في مختلف مستويات التفكير الإنساني ومجالاته، فكل الثقافات الإنسانية تشتمل على نظام معرفي معين، قد لا يدركه أبناؤه حتى العلماء منهم لأنه بدون هذا الناظم لا يمكن أن يتم إنشاء ثقافة أو بناء علوم أو معارف"[٣] أما حسن بريمة يعرفه بقوله: "النظام المعرفي: شبكة مترابطة من المفاهيم الجامعة والمسلمات الكلية، التي تملك استنباطها من الرؤية الكلية والفرضيات النظرية، ولها اتساق وانسجام فيما بينها، وتدعي التعبير الحقيقي عن ما يدور في الواقع الاجتماعي."[٤]

انطلاقاً من هذه التعريفات السابقة وتأسيساً عليها، نبدي مجموعة من الملاحظات المنهجية كالتالي:

- يؤدي الخلط المنهجي بين رؤية العالم والنموذج المعرفي إلى إرباك منهجي في تصور طبيعة النموذج المعرفي، فالرؤية هي البعد الميتافيزيقي الذي يتأسس عليه النموذج وليست النموذج.

- تتم عملية توليد النموذج المعرفي في اتجاهين مختلفين، الاتجاه الأول

---

(١) المرجع السابق، ص٦٧.

(٢) منير، **أبعاد النظام المعرفي ومستوياته**، ضمن كتاب: **نحو نظام معرفي إسلامي**، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٣) عارف، **مفهوم النظام المعرفي والمفاهيم المتعلقة به**، ضمن كتاب: **نحو نظام معرفي إسلامي**، مرجع سابق ص٦٣.

(٤) بريمة، **الظاهرة الاجتماعية ونظامها المعرفي في القرآن الكريم**، ضمن كتاب: **نحو نظام معرفي إسلامي**، مرجع سابق، ٢٣٨.

من الجزئي إلى الكلي، كالاشتغال على حقل معرفي فرعي، كاللسانيات، وعلوم التفسير، وغيرها، لنصل إلى صياغة مقدمات إبستيمية لنموذج معرفي كلي، والاتجاه الثاني من الكلي إلى الجزئي، تتم هذه العملية وفق المنهج الاستنباطي، كأن نصوغ في البداية المقدمات المعرفية للنموذج المعرفي، ثم ننزلها على مختلف الفروع المعرفية الحقلية .

- يتم انطلاقاً من النموذج المعرفي الإسلامي الكلي صياغة نماذج معرفية فرعية خاصة بمختلف حقول المعرفة، وتشتق من النموذج الأصلي المقولات المعرفية المركزية في حركة تصاعدية أو تنازلية، وتدفع الممارسات العملية الإنسان إلى توليد المعرفة والعلوم، عن طريق نقل تلك العلوم المتولدة من عالم الحبر والمداد إلى عالم الحركة في الحياة والتاريخ، على سبيل المثال، نؤسس نموذجاً معرفيًّا في المجال التربوي، يؤدي إلى تأسيس مدرسة تطبق هذا النموذج التربوي، وهنا، يقوم الواقع العملي باختبار فاعلية هذا النموذج، ومن خلال عمليات النقد والتصحيح التي تطاله في كل مرة، يصل النموذج إلى مرحلة التوازن بين مكوناته، ويعطي دفعاً حضارياً للأمة الإسلامية.

- يعدّ النموذج المعرفي الإسلامي جهداً أنسانيًّا، يجب الفصل بينه وبين الوحي الرباني، وإن كان الوحي هو أساس هذا النموذج ومصدره ومرتكزه، فالنموذج يخضع لإعادة الصياغة والتصحيح في كل دورة حضارية، ويبقى الحكم على صلاحيته، عن طريق إبداع منهج أو مناهج، تمكننا من توليد المعرفة في مختلف مجالات الحياة الإنسانية.

لذلك؛ نصوغ التعريف الإجرائي للنموذج المعرفي: "يعدّ النموذج المعرفي جملة من المقدمات المعرفية والمنطقية والمنهجية المتولدة من الرؤية الإسلامية إلى العالم، والتي تعدّ كأساس عقائدي ميتافيزيقي للنموذج، تستنبط هذه المقدمات من قراءة الوحي والكون، ومن قراءة نقدية واعية للتراث الإسلامي وللتراث الإنساني، تحدد تلك المقدمات طبيعة المعرفة ومصادرها ووسائلها وغاياتها،

وتخضع صياغة النموذج لجهد معرفي مشترك لجماعات علمية عديدة، تجمع بين المشتغلين في مخلف حقول المعرفة الإنسانية."

أخيراً، أصبح التمايز بين الأمم في عالمنا المعاصر على أساس المعرفة، وليس على أساس المعتقدات الدينية، فتتمثل قوة النموذج الغربي وجاذبيته في البعد المعرفي، الذي يكون مخفياً فيه الجانب العقائدي؛ لذلك؛ نحن مطالبون بنقل مقدمات النموذج المعرفي الإسلامي إلى مجالات المعرفة المختلفة، فمثلاً، يتم التأسيس المعرفي للعلوم الاجتماعية والإنسانية من هذا المنطلق، وهنا، تكون العلاقة جدلية بين مقدمات النموذج وطبيعة المعرفة المتولدة عنه، حتى نتجاوز البعد الأيديولوجي للعقائد ونخطو خطوة إلى الأمام، فإذا لم نستطع صياغة علوم من مقدمات النموذج، فمن الضروري إعادة التفكير في هذه المقدمات، فالمقدمات التي ارتكز عليها النموذج المعرفي في التراث الإسلامي، تحتاج إلى إعادة نظر أو توسيع، مثل طبيعة العلوم وتصنيفها، وكذلك المنهج الأصولي، وقدراته على توسيع الاشتغال في العلوم الاجتماعية؛ لذلك؛ سنتناول أهم خصائص النموذج المعرفي الإسلامي كالتالي:

## ٢- المقدمات المعرفية للنموذج المعرفي الإسلامي:

### أ- التوحيد، مقدمة معرفية مركزية في النموذج المعرفي الإسلامي:

انطلاقاً من تصور الألوهية في الرؤية الإسلامية إلى العالم، والتي أكدنا فيها أن الله في الرؤية الإسلامية حقيقة متجاوزة لهذا الوجود، وأنه ذات لا يمكن أن تدركها ذوات البشر، وأنه وصفَ ذاتَه في الوحي بالوِحدانية، وهو واحد أحد خالق الكون والوجود، وهو المشرف والمسؤول عن كل ما يقع في هذا الكون، تتأسس من هذا المبدأ مقدمة معرفية في النموذج المعرفي الإسلامي التوحيد كمقولة معرفية، تتفرع عنها جملة من المبادئ المعرفة التي تقع في طرف النقيض من النموذج المعرفي الوضعي الغربي:[1]

**البعد الأول**: هو وحدة المعرفة، التي يجب بمقتضاها أن تسعى كل العلوم إلى

(١) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص٥.

طلب معرفة الحقيقة بمنهج عقلي موضوعي نقدي، وهذا سوف يريحنا وإلى الأبد من الزعم الذي يقسم العلم إلى "عقلي" و"نقلي" بما يوحي بأن الثاني غير عقلي؛ أو يقسمه إلى دراسات "علمية ومطلقة" وأخرى "اعتقادية نسبية".

**البعد الثاني**: هو وحدة الحياة والتي بمقتضاها يجب أن تأخذ كل العلوم في اعتبارها الطبيعة "الهادفة" للخلق وتعمل على خدمتها، وهذا سيقضي وإلى الأبد على الزعم القائل بأن بعض العلوم عظيم القيمة وبعضها محايد أو عديم القيمة.

**البعد الثالث**: هو وحدة التاريخ، التي يجب بمقتضاها أن تعترف كل العلوم بأن النشاط الإنساني كله ذو طابع اجتماعي أو مرتبط بالأمة، وأن تعمل على خدمة أهداف الأمة في التاريخ. وهذا سوف يقضي على تقسيم العلوم إلى "فردية" و"اجتماعية" مبرزاً – وعلى الفور – جميع العلوم [على أنها] إنسانية الطابع وذات ارتباط بالأمة".

انطلاقاً من تحويل التوحيد من مقولة غيبية اعتقادية إلى مقولة معرفية، فإننا نعمل على بلورة المعرفة الإنسانية، "إن التوحيد الذي يمثل الله موضوعه (وليس الوحدة)، هو ما يدفع بالنظام المعرفي في الإسلام إلى بناء النموذج الكلي وبلورة رؤية شمولية."[1]

وعلى العكس من الإيمان المسيحي، فإن الإيمان الإسلامي هو حقيقة يصل العقل بها إلى اليقين، "وليس تسليماً بلا تمحيص يعتمد على سذاجته وقابليته للتصديق، وحقائق الإيمان وأخباره في الإسلام ليست أسراراً، ولا ألغازاً غير منطقية، ولا سبيل إلى معرفتها بل هي حقائق أو أخبار عقلية ونقدية، جرى إخضاعها للشك، وخرج المؤمن بها من اختبارها وتمحيصها بالتيقن في صحتها."[2]

التوحيد بوصفه مبدأً للمعرفة، هو الإقرار بأن الله تعالى هو الحق، وأنه وحده لا شريك له، ويستبطن هذا الإقرار وجوب رد أمر البت في كل خلاف وفي كل شك،

---

(١) منير، **أبعاد النظام المعرفي ومستوياته**، مرجع سابق، ص١٧٥.

(٢) الفاروقي، **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٨٨.

إليه سبحانه وتعالى، وبأنه لا دعوى ستتعصي على المعايرة والبت القاطع فيها، فالتوحيد إقرار بأن الحقيقة قابلة لأن تعرف، وأن بوسع الإنسان أن يصل إليها."[١]

**ب- مقدمة البعد الإيماني للمعرفة في النموذج المعرفي الإسلامي:**

بعد مبدأ التوحيد بوصفه مقولة معرفية، تأتي مقدمة الإيمان بوصفه مقولة معرفية؛ إذْ يتحول الإيمان من مقولة عقائدية غيبية حول الإيمان بالله وكتبه ورسله، والغيبيات التي أخبر عنها الوحي الرباني، "فيعرف علماء العقيدة الإيمان: الاعتقاد الجازم بأن الله حق، وأنه واحد لا شريك له، وأنه متصف بصفات الكمال المطلق، ومنزه عن كل عيب أو نقص، فإنه سبحانه المستحق وحده العبادة"[٢] إلى مقولة معرفية، تتأسس عليها جملة من المبادئ المعرفية الفرعية، التي تعدّ بمثابة أعمدة هندسية في الفكر الإسلامي.

ويعني الحديث عن الإيمان والمعرفة بالضرورة الحديث عن العلاقة بين الدين والمعرفة، مما يعني أن الإيمان الإسلامي مقولة معرفية، "وأن الإيمان ليس مجرد مقولة أخلاقية، بل هو في الحقيقة، وفي المقام الأول مقولة معرفية، وهو بتعبير آخر: مفهوم مرتبط بالمعرفة وبصحة الأخبار التي يتأسس عليها، ولما كانت طبيعة محتواه الخبري مماثلة بطيعة المبدأ الأول للمنطق والمعرفة، ولما وراء الطبيعة، والأخلاق والجماليات، فإن فعله في المتعرض له يشبه فعل النور الذي يضيء له كل شيء."[٣]

إذا أقصت المذاهب الفلسفية الغربية المادية العلمانية الدينَ من دائرة المعرفة، وعدّته ميتافيزيقا، تجاوزها العقل البشري بعد اكتشافه للمنهج الوضعي التجريبي، فإن الدين في الفكر الإسلامي وتراثه، يعدّ الركيزة التي تتأسس عليها بقية جوانب المعرفة، وهنا، بالطبع الحديث عن علاقة الوحي بالمعرفة، "الإيمان هو التصديق

(١) الفاروقي، **أسلمة المعرفة، المبادئ العامة-خطة العمل-الإنجازات**، مرجع سابق، ص٩٠.

(٢) مكي، مجد. **البيان في أركان الإيمان**، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط٢، ٢٠٠٣م، ص٢٤-٢٥.

(٣) الفاروقي، **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص٨٩.

والإقرار بأن الله خالق هذا الوجود، ويحيط بعلمه به، وأن الإنسان ذرة في هذا الكون، زوده بجانب فطري يدرك من خلاله عظمة خالقه، "لما كانت المعرفة الإلهية لا متناهية، فإن لا محدودية مداها تحولت إلىٰ أنموذج معرفي يسعىٰ المسلمون إلىٰ التماهي معه وتحقيقه في العالم، وبينما تخترق المعرفة الإلهية العالم والوجود كلية مطلقة، فإن الإنسان المؤمن بهذه المعرفة يبحث عن أملاك ممثل لها، ويبقىٰ دائماً في حركة ذهنية وحضارية لا تنتهي، فهو يعلم أنه لن يصل إلىٰ التساوىٰ مع العقل الإلهي، لكن يطمح إلىٰ أقصىٰ درجة تسمح له بمحاكاة هذا العقل."[١]

ارتباط المعرفة بالإيمان في النموذج المعرفي الإسلامي، الإنسان المؤمن هو "الذي يبحث عن الله في حقائق الوجود؛ لأن التسليم بالألوهية يستتبع البحث عن تمظهرات الألوهية في حركة الإنسان والطبيعة والوجود، وبالتالي يتحول الإسلام من بداية إيمانية وروحانية إلىٰ ممارسة معرفية عن تجليات الله في تفاصيل الوجود."[٢]

تأتي غائية المعرفة من اشتراط الإسلام للمعرفة البدء بالإيمان، الذي يحدد للمعرفة غايتها النهائية، "الوحدة بين المعرفة والإيمان، وشمولية المعرفة الإلهية انعكاسها في التجربة العقلية للإنسان، جعلتا من العلم الشامل والموحد وسيلة يستطيع المسلم من خلالها تحقيق إرادة الله علىٰ الأرض: أنسنة العلم الإلهي، العدل الله، الحق الإلهي... تبعاً لذلك؛ لا تكون المعرفة غاية بذاتها لذاتها، كما أنها لا تكون مقدمة ضرورية لفرض السيطرة والتسلط، إنها تحديداً وسيلةُ الإنسان لكي تكون حركته في العالم تجسيداً لحضور الألوهية فيه."[٣]

**ت- مصادر المعرفة في النموذج المعرفي الإسلامي:**

---

(١) الشامي، علي. **الحضارة والنظام العالمي، أصول العالمية في حضارتي الإسلام والغرب**، بيروت: دار الإنسانية، ١٩٩٥م، ص٢٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

يعدّ الوحي الرباني من مصادر المعرفة في النموذج المعرفي الإسلامي، فإلصاق صفة الإسلام بالنموذج، تعني منطقياً أن الدين الإسلامي هو الإطار المرجعي للمعرفة في النظرية المعرفية الإسلامية، فنجد في التراث الإسلامي أن الوحي أهم مصدر للنموذج الذي تشكل في الحضارة الإسلامية، وأسهم هذا النموذج في إنتاج معرفي على هيئة علوم نقلية دينية أو علوم طبيعية عقلية، وحتى الفلسفة الإسلامية على الرغم من اتصالها بالعقل اليوناني، إلا أنها حاولت جاهدة أن لا تتجاوز حقائق الوحي الديني.

إذا كانت الفلسفة الوضعية في الحضارة الغربية قد أقصت الدين مطلقاً من مجال المعرفة، بل دعت إلى دراسته كظاهرة ثقافية في مجال الإنثربولوجيا والعلوم الاجتماعية، وأعلت من قيمة العقل الإنساني؛ إذْ جعلته الحكم والمصدر في إنتاج المعرفة، فإن النظام المعرفي الذي تشكل في الحضارة الإسلامية على النقيض من ذلك؛ إذْ "يتميز التصور الإسلامي للعلم والمعرفة بخصائص ذاتية، تعطي ذلك التصور أبعاده الدينية والعقلية الوجدانية معاً، لكي تجعل من ذلك التصور أداة فعالة لإدراك حقيقة، إدراكاً شاملاً في إيصال المعرفة إلى أعماق النفس الإنسانية المتكونة من عوامل متعددة، وساهم في تكوين ذاتية إنسانية ذات أبعاد تتجاوز حدود المنطق العقلي الإدراك المادي والانفعال العاطفي والحالات الجامدة."[1]

تأسيساً على وحدة الأصل الإنساني في الرؤية الإسلامية إلى العالم، تتأسس وحدة القدرة على الإدراك المعرفي، "لقد هيأ الله لكل إنسان بمقتضى إرادته التكوينية، المؤهلات الأساسية في إدراك المعرفة من آيات كتابه المنظور، من الحواس وإرادة البحث والاستكشاف والعقل، وذلك على وجه المساواة بين الناس جميعاً، فلا يحق لأمة ولا جماعة أن تدعي احتكار العلم، أو التفرد بالقدرة على استنباط المعرفة؛ لأن الناس متساوون في تلك المؤهلات لحظة ميلادهم."[2]

---

(١) حاج يعقوب، محمد الباقر. "التصور الإسلامي للعلم وأثره في إدارة المعرفة"، **مجلة الإسلام في آسيا**، ماليزيا، عدد خاص (ديسمبر ٢٠١١م)، ص٩.

(٢) رفيع، "**المنهج القرآني في بناء المشرك الإنساني**"، مرجع سابق، ص١٢١.

وعلى العكس مما ذهب إليه بعض المستشرقين، عندما يصفون الإنسان الشرقي المسلم على أنه إنسان وجداني تسيطر عليه الذهنية السحرية، بينما الأمم الغربية أمم عقلانية بالغريزة، فإن النموذج المعرفي الإسلامي ينطلق من فكرة إمكانية تحصيل المعرفة في كل ضروبها على نحو متساو بين البشر، مهما كان نوع الإنسان وعقله ولونه وعرقه، وانتماؤه الثقافي والحضاري.

إن مضامين "العلم-التحديد المعياري الوظيفي للعلم-في القرآن الكريم أو بقية الصادر الإسلامية عموماً، أو عند المفكرين والعلماء في التاريخ المعاصر، يمكن حصرها في ثلاث وظائف هي: قدرة العلم على تحديد الحقيقة، وقدرة العلم على حل المشكلات، وفعالية العلم في تحقيق التجديد، وتغير الأوضاع والانتقال بها نحو الأفضل والأقوى."(١)

نعطي في البداية تعريفاً للوحي عند بعض العلماء، عرفه محمد عبده بقوله: "الوحي في أصل معناه هو تلك الطريقة في العلم التي تلقى بها النبي من الله تعالى تعاليم الرسالة الذي اختير ليبلغها إلى الناس ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١]، ولكنه أصبح أيضاً يطلق على التعاليم باعتباره مضموناً من المعاني كما هو الأمر بالنسبة إلى الحديث الشريف، أو بوصفه مضموناً ولفظاً كما هو بالنسبة للقرآن"(٢).

ومن خصائص الوحي:(٣)

١- إن الوحي كلَّه قرآناً وحديثاً إلهي المصدر، ولا مدخل لذات النبي فيه بوعي سوى التحمل والتبليغ، أما القرآن فهو إلهي المصدر لفظاً ومعنىً، أما الحديث فهو الهي المصدر في معناه دون لفظه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣-٤].

---

(١) العماري، أحمد. **نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار:المغرب نموذجاً**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧م، ط١، ص١٠٤.

(٢) عبده، **رسالة التوحيد**، مرجع سابق، ص١٠٩.

(٣) النجار، **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، مرجع سابق، ص٧٠.

٢- الوحي وحقائقه مطلقة غير خاضعة للتعقيب الأساسي في ذاتها، ودور الإنسان إزاءها إنما هو دور الاستجلاء فحسب، وإن كانت مطلقة؛ لأنها نابعة من علم إلهي مطلق بما هو كائن في عالم الغيب، وبما ينبغي أن يكون في حياة الإنسان بناءً على العلم ذاته وحقيقة أطواره من بدايته إلى نهايته.

٣- ما جاء في الوحي لا يخالف أيًّا من قضايا العقل؛ أي مبادئه، بل هو عار على مقتضاها، ومن يظن أنه مناقض للعقل، فليس إلا متعالياً عن فهمه دون أن يكون مناقضاً له.

إن هذا الخطاب الإلهي المصدر، لا بد له من عقل يعقله ويفهمه على وجهه الصحيح، وهناك من يذهب إلى أنه يحتاج إلى قلب سديد ليستلهم معانيه، لذا سنحاول أن نقف على مفهوم آخر على علاقة بمفهوم الوحي، والذي أكدنا أهم خصيصة له أنه إلهي المصدر، ألا وهو مفهوم العقل، الذي هو مناط التكليف، وفهم واستيعاب معاني الوحي، ففي اللغة العربية نجد أن كلمة العقل تحمل المعاني التالية، "العقل لغة: الحجر والنهي ضد الحمق، والمعقول: ما تعقله وتدركه بقلبك، والعقل: التثبت في الأمور، وسمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه من التورط في المهالك، أي يحبسه، وعقل الشيء بعقله عقلاً: فهمه."[١]

وردت مفردة العقل في الوحي الرباني سواء في القرآن أو في سنة النبي المصطفى ﷺ، في ثلاثة معانٍ: "ذكرت لفظة العقل ومشتقاتها في القرآن الكريم والسنة الشريفة كثيراً، وغالباً ما تطلق على أحد الأمور الثلاثة: العقل من إذْ هو آلة لإدراك العلم، والعقل: من إذْ عملية الإدراك والتعقل التي توصل لإدراك المعلوم، والعقل: بمعنى العلم الذي يستفاد بالعقل،"[٢] وفي الإسلام "العقل هو مناط التكليف، وهو الجهة التي يدرك بها الإنسان فحوى الخطاب، وهو الوسيلة الإنسان

(١) حوى، معاذ سعيد. "النظر العقلي وأثره في تزكية النفوس"، **مجلة إسلامية المعرفة**، ع٥٤، (٢٠٠٨م)، ص٧١.

(٢) المرجع السابق، ص٧١.

للمعرفة، وهو (أي العقل) على معان، فعنده بديهيات مستقرة، وله القوانين مغروسة، وهو يصل إلى المعرفة من خلال التعليم والاستقراء والاستنتاج، ومن هنا وُجد علم المنطق الاستقرائي والاستنتاجي، فإن الإنسان يتعرف على علم المنطق للتعرف على قوانين العقل، على ما هو بديهي وعلى ضوابط الاستنتاج الصحيح."[١]

لقد جعل التنوير الغربي أن لا سلطان "على العقل إلا العقل" ولم يكن ذلك لمجرد انتصار العقل على اللاهوت الكنسي، وإنما كان ذلك لأن فلسفة التنوير "وضعية ومادية" تقف عند معارف عالم الشهادة وحقائقه وحده، والحقائق التي رأت العقل قادراً على أن يستقل بإدراكها دون عون من الوحي والدين"[٢] وردتْ وسائل المعرفة العقلية الحسية في القرآن الكريم، في عديد الآيات، ويقول أحمد صالح: "يظهر استقراء مفردات القرآن الكريم، أن سبل المعرفة تعتمد في أثرها على الحواس، وقد ذكر الرؤية في مائة وخمسة وثمانين آية، والسمع في مائة وسبعين آية، والنظر في قرابة مائة وعشرين آية، وبمقارنة العدد الكبير لتكرار المفردات في السبيل الحسي للمعرفة، مع العدد القليل لتكرار السبل الغيبية للمعرفة، يتجلى مدى تأكيد القرآن الكريم على استخدام السليم للحواس للوصول إلى العلم الحقيقة وفهمه."[٣]

إن الإسلام ليس ديناً مقصوداً به المجانين، وهذا يعني أنه علينا أن نجدد معرفتنا بالدين الإسلامي، "وأن نكون باستمرار حذرين ضد كل التأويلات الخاطئة والمنحرفة، كما يعني أن نرتقي دائماً إلى مستوى المعرفة الصحيحة بالإسلام وبالرؤية الإسلامية للوجود، وذلك لكي نضع كل معرفة أخرى نحصل عليها في مجالات العلوم المختلفة في مكانها الصحيح من جهة علاقتها بالمعرفة الأولى، إذْ

---

(١) حوى، سعيد، **الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد**، القاهرة: دار السلام، ط٣، ١٩٩٦م، ج١، ص٢٨.

(٢) عمارة، **الموقع الفكري لابن رشد بين الغرب والإسلام**، مرجع سابق، ص٩٣.

(٣) علي، صالح أحمد. **الأصول التاريخية للعقل في الفكر العربي**، في كتاب: **مكانة العقل في الفكر العربي المعاصر**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،، ١٩٩٦م، ط١، ص١٨.

تحفظ للمعرفة في أنفسنا نظاماً عادلاً ومتوازناً."[1]

إن أكبر معضلة إبستيمولوجية في النموذج المعرفي الإسلامي تتمثل في طبيعة العلاقة بين الوحي والعقل، فهل الوحي متسامٍ على العقل في رتبة الحقيقة؟ أم أن العقل والوحي كلاهما في الرتبة نفسها؟ هل الحقيقة التي يتوصل إليها العقل بالضرورة يجدها في الوحي؟ وهل الوحي مصدر معرفة فقط بالنسبة للعقل، أم قد يحوي ناظماً منهجيًّا كما عبر عنه حاج حمد في دراسته حول إبستيمولوجيا إسلامية المعرفة، يستخدمه العقل الإسلامي في التأسيس لفلسفة علوم معاصرة، أم أن العقل يكون مسدداً ومؤيداً بالوحي حتى لا يقع في الزلل كما في العقلانية الإسلامية التي طرحها المفكر طه عبد الرحمن؟ برأينا تحتاج هذه المقدمة إلى جهود معرفية مكثفة لإعادة الوصل بين طرفيها (العقل والوحي).

من المعلوم، أن ثنائية العقل والوحي أدت إلى ثنائية في العلوم الإسلامية، علوم نقلية تعتمد على المنهج الاستنباطي في توليد معارفها، وعلوم عقلية كالطبيعيات والرياضيات والمنطق تستخدم المنهج الاستقرائي للوصول إلى المعرفة، وبسبب العلاقة بين الوحي والعقل في التراث الإسلامي، انفصل العقل الفلسفي الإسلامي إلى رشديين نسبة إلى ابن رشد، وغازاليين نسبة إلى أبي حامد الغزالي.

لذلك؛ العلاقة بين الوحي والعقل نتلمسها دائماً كمقدمات منهجية يصرح بها المؤلف في أي كتاب تراثي، سواء ابن خلدون أو الشاطبي أو غيرهما؛ لذلك نعتقد أننا في مرحلة التأسيس لنموذج معرفي إسلامي، فلا ندعي أنه نموذج كامل العناصر، وإلا لحكمنا على أنفسنا بأننا ندور في حلقة مفرغة، فإذا كان النموذج المعرفي الإسلامي قد تحقق مسبقاً في الحضارة الإسلامية، ونحن سلمنا جدلاً أننا الآن في مرحلة الاستئناف الحضاري، فكيف نتكلم عن نموذج معرفي، ونحن لم نختبر مقدماته في إنتاج المعرفة.

---

(١) العطاس، **مداخلات فلسفية في العلمانية والدين**، مرجع سابق، ص١٣٠.

ملحوظة أخرى، دخل النموذج المعرفي في التراث الإسلامي في علاقة تفاعلية مع منتجات الحضارية الإنسانية التي سبقته كاليونانية والفارسية والرومانية، فما موقف النموذج المعرفي الذي نريد بناءه من مناهج النموذج المعرفي الغربي المعاصر؟ بعيداً عن الفكر التبشيري والدعوي، ومع ضرورة التحلي بالموضوعية العلمية في طرح هذه القضايا، من دون عقدة التسامي في تناول النموذج المعرفي الغربي وتفكيكه إلى عناصره الأولية، يجب التفكير في الطرح المعرفي لمقدمات منهجية ومعرفية، نتمكن عن طريقها من الجمع بين الوحي والعقل، وتبقى السلامة المنطقية لهذه المقدمات، إذا تولدت عنها المعرفة سواء في الطبيعيات أو الإنسانيات.

**ث- مفهوم العلم في النموذج المعرفي الإسلامي:**

يتأسس العلم من البعد الكسمولوجي للرؤية الإسلامية إلى العالم، بوصفه آلة عقلية يسعى من خلالها الإنسان إلى اكتشاف القوانين التي تحكم سير الكون، ويصل بوساطته إلى عظمة خالقه، وهناك آيات عدّة في القرآن الكريم تحث الإنسان على التأمل في ملكوت الله، وتؤكد للإنسان المسلم وحدانية الله تعالى، وهنا، يتم الانتقال من صورة الاعتقاد إلى صورة المعرفة، وبوساطة العلم يحقق الإنسان الخلافة في الأرض، عن طريق عملية الإعمار التي تحتاج إلى العلم في كل حضارة إنسانية، "القضايا ذات البعد الكوني تمثل قضية تسخير الكون للإنسان وأنه معد لأجله، ومنفتح لاستعطائه، وممهد لينجز مهمتهم التي من أجلها خلق، وقضية استثمار الكون والانتفاع بمرافقه وتسخير مقدراته لبناء الحياة، في اتجاه الغاية العليا، وهي تحقيق الخلافة، ابتداءً بالتدبر والتفكر لتحصيل العلم، وانتهاءً بالاستثمار التطبيقي النفعي لتحصيل العلم، وقضية الرفق بالكون والحفاظ عليه من أن تناله أيدي الفساد والتدمير."[1]

(١) النجار، عبد المجيد. "دور الإصلاح العقائدي في النهضة الإسلامية"، **مجلة إسلامية المعرفة**، بيروت: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ع١، (١٩٩٥م)، ص٧٠.

إن التصور الإسلامي للعلم مناقض تماماً لتصور الفلسفات الوضعية الغربية، فالعلم مؤسس على التوحيد وعلى الإيمان بالله، "يؤسس الإسلام رؤية شمولية للعلم، تبدأ من ضرورته للإيمان وأهميته لتطور حياة البشر وصولاً إلى تعيين وسائله وغاياته، الأمر الذي يضع العلم في سياق كونه أداة الإنسان في تعقله لذاته، ولربه ولطبيعة البشر والحياة بشكل عام، أما العقل الذي يبدأ بتعميق الوعي بالعلم الإلهي، فإنه ينتج علماً إنسانياً يسعى إلى محاكاة العلم الإلهي، إذ ينبغي على العلم الإنساني أن يكون مجسداً للعلم الإلهي في أبعاده الشمولية والتوحيد والإنسانوية."(١)

العلم أداته العقل، الذي يرتبط بأهم مصدر للمعرفة في النموذج المعرفي هو الوحي الرباني، "العقل لاشك طاقة فعل، ووسيلة يتوصل بها للمعرفة والعلم من مصادرها الأساسية: الوحي والكون، إن الوحي يمثل دائرية المعارف الإسلامية، أما الكون فإنه يمثل المعجم والمختبر الذي يحوي على مفردات هذه الدائرة."(٢)

ومن مبدأ تسخير الله تعالى الكون للإنسان، ودعوته إلى الإعمار والاستخلاف، فإن المسلم مطالب بطلب العلم والكشف عن أسرار الكون، "فالعقل المسلم مدعو من منطلق الخلافة إلى تسخير الكون والكائنات لما فيه النفع: نفعه ونفع الكون والكائنات من حوله، ومدعو إلى العمل والسير في دروب الكون ومناكبه، ومدعو إلى العلم بأسراره وتسخير هذا العلم لما فيه الخير، والعقل المسلم من منطلق الخلافة هو صاحب الشأن والكلمة في الكون ومطالب بالسعي في الإعمار، وبالعلم والإنجاز والتسخير يحقق الإنسان مهمته في الأرض، ويبلغ غايته."(٣)

"إن الرؤية الإسلامية القويمة التي يتكامل فيها الوحي والعقل والكون،

---

(١) الشامي، علي. **الحضارة والنظام العالمي**، مرجع سابق، ص٢٠٨.

(٢) التيجاني، عبد القادر. "المفهوم القرآني والتنظيم المدني"، **مجلة إسلامية المعرفة**، بيروت: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ع ١، (١٩٩٥م)، ص٨٢.

(٣) أبو سليمان، عبد الحميد. **أزمة العقل المسلم**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م، ص١٣٠.

ويصرف فيها العقل المسلم إلىٰ النظر والتدبر والعمل في عالم الشهادة وشؤونه، كما يوجهه الوحي، هي الرؤية التي مكنت السلف الأول ناصية الإبداع، وفتحت أمام العقل السليم أبواب التجريب والنظر والتنقيب في سنن الحياة والكائنات، وفتحت للإنسانية آفاقاً جديدة في مجال الحضارة."[1]

إن الروح العلمية التي نجد مفهومها في العديد من الكتب المنهجية في العالم الغربي، والتي ترجعها الأبحاث إلىٰ الثقافة المجتمعية أو البيئة الاجتماعية، التي برأيهم تحفز علىٰ طلب العلم أو تعوقه، تلك الروح التي يقدمها الفلاسفة الغربيون، علىٰ أنها ملكة جبلت عليها أممهم وحرمت منها باقي الأمم، فإننا نرىٰ مبدأ هذه الروح العلمية وأساسها هو التصور الاعتقادي، الذي يتحول إلىٰ تصور معرفي، يحفز الإنسان إلىٰ السعي في هذا العالم المادي للتحقق من منطلقاته الميتافيزيقية.

إنْ بدت الحضارة الغربية اليوم حضارةً علميةً وعقلانية، فإننا نلحظ من باب التقليد في العالم العربي والإسلامي، ذلك الكم الهائل من العمران المادي الذي يضم بين جنباته المعاهد والجامعات، إلا أنها لا تقدم للإنسانية أي إضافة معرفية، بل تحتل معظم الجامعات العربية المراكز الأخيرة في ترتيب الجامعات العالمية؛ لأن منتسبيها فاقدون للروح العلمية، بل إن مشتغليها فاقدون للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، تلك الرؤية التي تدفعهم للبحث والعلم، لا سعياً لتحقيق مكاسب مادية، بل للتحقق المعرفي من معتقداتهم الدينية الإيمانية.

من هذا المنطلق، نحن اليوم لسنا في حاجة لنكرر أمام الأمم صحة عقيدتنا الإسلامية، بل نحن مطالبون ومن منطلق التدافع الحضاري إلىٰ تحويل معتقداتنا إلىٰ مبادئ معرفية ننافس بها الأمم، ونثبت لهم أن العلم في الرؤية الإسلامية مختلف عن العلم في الرؤية الغربية، بل ومتجاوز لها؛ لأنه مسدد بالوحي الرباني؛ لذلك يجب أن تعمم هذه الرؤية في المنظومات التربوية في العالم العربي والإسلامي، وإفهام الناشئة أن العلم هو الطريق الدال علىٰ وحدانية الله، وأن بالعلم تتحقق

(١) عمارة، **الموقع الفكري لابن رشد بين الغرب والإسلام**، مرجع سابق، ص٩٣.

الخلافة في الأرض، ويتحقق به الإعمار الكوني، وأنه من دون علم وعمل، فإننا لن نحقق العبودية الكاملة التي خُلق من أجلها الإنسان.

إن آيات عديدة، "تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات، إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة منحنياتها وغوامضها، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض، وتسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي."[1]

نجد في كثير من الآيات، "ترغيباً في علوم الكائنات، وإرشاداً إلى الحث فيها لمعرفة سنن الله وحكمه فيها، وآياته كثيراً فيها دالة على علمه وحكمته ومشيئته وقدرته ورحمته، ولأجل الاستفادة منها على أكمل الوجوه التي ترتقي بها الأمة في معاشها وسيادتها...وأرشد القرآن الكريم إلى جميع العلوم النباتية والحيوانية والإنسانية والفلكية والجوية والحسابية."[2]

إنَّ هناك خللاً أصاب الاتساق الذي كان يجمع بين عناصر النظام المعرفي الإسلامي في الحضارة الإسلامية، الأمر الذي أدى لاحقاً إلى انحطاطها وسقوطها، وهذا الخلل من وجهة نظرنا، يتمثل في تغليب العلوم الغيبية التي تعنى بعالم الغيب، على حساب علوم الحياة التي تعنى بعالم الشهادة، والتحول من تزكية العقول إلى تزكية النفوس مع المذاهب الصوفية المتطرفة، التي دعت إلى ترك الدنيا، والعلم لاكتشافها.

لذلك؛ فإن إحدى المعضلات المنهجية التي تواجه تأسيس النموذج المعرفي

---

(١) خليل، عماد الدين. **حول تشكيل العقل المسلم**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩١م، ص٧٧-٧٨.

(٢) رضا، رشيد. **تفسير المنار**، سوريا: دار الفكر، ج ٨، د.ت، ص٢٩١.

الإسلامي، هي الطريقة المنهجية التي نعيد بها التوازن بين الوحي والعقل، والكيفية التي نحقق بها العلاقة التكاملية بينهما، فنحن في حاجة إلىٰ إعادة التوازن والتكامل بين عالمي الغيب والشهادة؛ لأن تفوق الحضارة الغربية في عالم الشهادة، أدىٰ ببعض المسلمين إلىٰ التشكيك في عالم الغيب، الذي يعدُّ المكون الثاني في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم.

ونرىٰ أن التمكن من معرفة عالم الشهادة، يصبح أكثر من ضرورة علمية، بل ضرورة عقائدية لأنه دال علىٰ عالم الغيب، ودال علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، وهو أيضاً إثبات معرفي بأن عالم الشهادة المادي الحسي، ليس عالماً مستقلاً بذاته، بل هو خاضع لمشيئة الله، ونؤسس نموذجاً حضاريًّا، يؤكد أن معتقداتنا الدينية تدفع بالإنسان إلىٰ الإعمار الكوني، وإلىٰ الكشف عن القوانين التي تحكمه، ونكون في علاقة قيمية أخلاقية مع البشر ومع الوجود.

**ج- صلة القيم بالمعرفة في النموذج المعرفي الإسلامي:**

تتأسس انطلاقاً من البعد الإيكسولوجي للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم مقدمة معرفية مهمة في النموذج المعرفي، وهي البعد القيمي للمعرفة والعلم، وارتباط الأخلاق بالعلم، بل وأسبقيتها عليهما، ويهدف العلم في الرؤية الإسلامية إلىٰ الغاية الأسمىٰ، وهي معرفة وحدانية الله، وعبادة الإنسان لربه؛ إذْ "الهدف الأساسي للمعرفة العلمية في الإسلام هداية الإنسان والأخذ بيده، نحو الله خالق الكون وحافظه، كما ينتظر من ذلك العلم، أن يكتشف وحدة الطبيعة وبالتالي وحدة خالقها، ومثل فكرة التوحيد الخالق مبدأ أساسيًّا في الإسلام خضع لتقييمه سائر الأفكار."[1]

إن البعد القيمي للمعرفة الإسلامية، لا يضع الإنسان في حالة تقابلية مع الطبيعة، كما وضعته الفلسفات الغربية، في علاقة صراع وغزو لها، وقد عدّت

(١) كلشني، مهدي. **من العلم العلماني إلىٰ العلم الديني**، بيروت: دار الهادي، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٠١-٢٠٢.

فلسفة التنوير أن أحد مبادئها السيطرة على الطبيعة، ثم تعدتها إلى السيطرة على البشر من منطلق الرقي العرقي والحضاري، مثلما فعلت في الحملات الاستعمارية على الشعوب المستضعفة، ولا تزال إلى يومنا هذا تتعامل مع الشعوب غير الغربية من منطق أسياد وعبيد.

أما عن طبيعة العلاقة بين المسلم والطبيعة، فهي علاقة أخلاقية بالدرجة الأولى، "إن الإسلام في تصويره للعلاقة بين الإنسان والعالم يرسم خطاً جديداً... خطاً يقوم على الوئام والانسجام والتكامل والتوافق، والتجانس والالتحام بين الإنسان والطبيعة، بين الجماعة المؤمنة والعالم...فما دامت قوة الطبيعة وطاقاتها قد سُخرت أساساً لخدمة الإنسان ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم، فإن العلاقة بينهما ليست بالضرورة علاقة قتال وصراع وغزو ...إنما علاقة انسجام وتكامل وكشف وتنقيب."(١)

إن الإنسان في الرؤية الإسلامية إلى العالم، ومن منطلق أنه مخلوق مستخلف في هذه الأرض، يعدّ الوحي الرباني مصدره الأساسي في منظومة القيم، ومن ثمّ لا يحق له التصرف بحرية مطلقة كما يتوهم بعضهم، بل العكس، فمن مبدأ الاستخلاف والأمانة، لا يحق له تطوير علوم تؤدي إلى تدمير الطبيعة والكون، ولا يحق له أن يبدل الخلق ويشوهه، كما تفعل بعض المختبرات الغربية، التي تسعى إلى تعديل الجينات الوراثية للبشر عن طريق الهندسة الوراثية، أو عن طريق البيوطيقا الطبية، أو أبحاث الفيزياء النووية، أو التلوث الذي يعمل على تدمير الكون.

## ثالثاً: المنهجية الإسلامية: المبادئ المعرفية لإسلامية المعرفة

انطلاقاً من المقدمات المعرفية التي تمثل العناصر البنيوية للنموذج المعرفي الإسلامي، وهي عناصر منبثقة عن تصورات الرؤية الإسلامية إلى العالم، ننزل إلى مستوى آخر، وهو المنهجية الإسلامية التي تتبلور مبادئها من تلك المقدمات

(١) خليل، **حول إعادة تشكيل العقل الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٥١.

المعرفية، والتي يجب أن لا تتجاوزها؛ لأنها تمثل البعد الميثدولوجي للمنهجية الإسلامية، وليس البعد الإجرائي للمنهج العلمي؛ لذلك؛ ابتداءً نتناول مفهوم المنهج في اللغة العربية، "منهج: طريق نهج: بين واضح، وهو المنهج، ...، والجمع منهجان ونهج ونهوج، وسبيل منهج: كنهج ومنهج الطريق، وضحه والمناهج كالمنهج والنهج الطريق، وضح واستبان وصار منهجاً واضحاً بيِّناً ...المنهاج الطريق الواضح، واستنهج الطريق صار منهجاً..."(١)

يدل الاستعمال اللغوي لمفردة المنهج أنه الطريق أو السبيل الواضح، وهذا يعني مجازاً أنه في المعرفة متى سلك الإنسان منهجاً سليماً كانت نتائجه المتولدة عنه سليمة؛ لذلك المنهج هو الطريق الموصل إلى المعرفة، أما في القرآن الكريم فوردت كلمة المنهج في الآية" ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]، فالمنهاج هو الطريق الموصل إلى القصد، وبقصد اكتمال المنهج المؤدي إلى ذلك"(٢)

"إن المنهجية والمنهج ليسا حقيقة واحدة، وإنما أحدهما يمثل إطاراً للآخر، فالمنهجية هي العلم الذي يدرس كيفية بناء المناهج واختيارها وتشغيلها وتعديلها، فهو الواصلة ما بين النموذج المعرفي والمناهج، التي تمثل الوسائل والطرائق التي تستخدم للوصول إلى الحقيقة، ويسلكها العقل البشري، لكشف غوامض الوجود وفك أسراره والاقتراب من حقائقه."(٣)

إن قضية إسلامية المعرفة قضية منهجية، "فتقوم على اكتشاف العلاقة المنهجية بين الوحي والكون، وهي علاقة تداخل وتكامل منهجي، تكشف عن استيعاب منهجية القرآن العظيم للكون، وسننه وقوانين حركته، كما أن فهم ومعرفة

---

(١) ابن منظور، محمد. **لسان العرب**، تحقيق: عامر أحمد العامري، بيروت: دار الكب العلمية، ط١، ٢٠٠٣م، ص٤٤٧.

(٢) عبد الفتاح، سيف الدين. **المنهجية الإسلامية وأدواتها من منظور إسلامي**، ضمن كتاب: **المنهجية الإسلامية**، أحمد فؤاد باشا وآخرون، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٠م، ج٢، ص٦٤٧.

(٣) عارف، **النظام المعرفي والمفاهيم المتعلقة بها**، مرجع سابق، ص٨.

السنن الكونية والقوانين الطبيعية تساعد على فهم واكتساب قواعد منهجية القرآن المعرفية."[1]

وحدد د. فتحي ملكاوي جملة من مبادئ المنهجية الإسلامية كما يلي:[2]

أ- مراعاة الاتساق الداخلي بين الرؤية الكونية أو رؤية العالم، وما ينبثق عنها من عناصر النظام المعرفي، وما يتضمنه من عناصر منهجية.

ب- اعتماد المرجعية القرآنية ضمن مفهوم الوحدة البنائية للقرآن الكريم، والسنة النبوية بوصفها تبياناً لنصوص القرآن وتطبيقاً لتوجيهاته.

ث- الجمع بين القراءتين، أي القراءة التوحيدية والتكاملية التي تقود إلى معادلة التكامل المعرفي.

ج- إعمال منظومة القيم المنهجية العليا، التوحيد والتزكية والعمران، بوصف هذه القيم الثلاثة أسساً حاكمة لسائر المبادئ والقيم والمسويات النظرية والعملية.

ح- تشغيل إسلامية المعرفة، التي تشترط التمكن والاستيعاب والتجاوز، عن طريق السعي نحو الأفضل والأحسن والأكثر إتقاناً، والترقي في منازل الكمال البشري.

**١-مبدأ المنهج المعرفي التوحيدي ووحدة الحقيقة:**

يعدّ التوحيد مقولة مركزية في النموذج المعرفي الإسلامي، وعليه يتأسس مبدأ المنهج التوحيدي، وجملة من المبادئ الفرعية، التي يمكن أن نعدّها اللبنات الأساسية للمنهج الإسلامي، نوجزها في:

- **وحدة الحقيقة،** إن وحدانية الله تعالى تقتضي معها بالضرورة وحدة الحق

---

(١) العلواني، **إسلامية المعرفة بين اليوم والأمس**، مرجع سابق، ص١٩.

(٢) ملكاوي، فتحي حسن. **منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية**، بيروت: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١١م، ص٢٤٩.

والخلق؛ لذا فهناك وحدة "في الحقيقة بمعنى يمكن أن تتعدد المناهج والوسائل الإدراكية لكن الحقيقة في النهاية واحدة.

إن خير ما يوصف به موقف الإسلام هو أنه قائم على "وحدة الحقيقة،"وهذه الوحدة مستمدة من وحدانية الله المطلقة، إن "الحق" هو أحد أسماء الله الحسنى؛ وإذا كان الله واحداً بالفعل كما يؤكد الإسلام، فلا يمكن أن تتعدد الحقيقة. إن الله يعلم الحقيقة وينزلها من خلال الوحي صافية إلى خلقه، فلا يمكن أن يجيء ما يتنزل به الوحي مختلفاً عمّا في الحقيقة الواقعية لأن الله سبحانه هو خالق الحقائق كلها الواقعية منها والمطلقة، تتفرع عن هذا المبدأ ثلاثة مبادئ فرعية في المنهجية الإسلامية:(١)

**الأول**: إن وحدة الحقيقة، تعني رفض أي إمكانية للتناقض بين الحقائق الواقعية وما يأتي به الوحي. فكل ما يقرره الوحي لابد أن يكون صادقاً منسجماً مع الواقع موافقاً له؛ إذ لا يتصور أن يكون الله – تعالى جاهلاً أو غاشاً أو مضللاً لمخلوقاته.

**الثاني**: إن وحدة الحقيقة، تفرض أنه لا يوجد تعارض أو خلاف أو تفاوت مطلق بين العقل والوحي، فوحدة الحقيقة ترفض رفضاً قاطعاً فكرة عدم وجود مبدأ أو حقيقة أو فهم أعلى يمكن أن يزيل التناقض.

**الثالث**: إن وحدة الحقيقة، أو طبيعة قوانين المخلوقات والسنن الإلهية، تفرض أن باب البحث في طبيعة الخلق أو في أي جزئية منه لا يمكن أن يغلق، وذلك لأن سنن الله في خلقه غير محدودة. فمهما عرفنا منها، ومهما تعمقنا في هذه المعرفة، لا يزال هناك دائماً المزيد منها ليكتشف. ومن هنا، فإن الاستعداد لقبول الجديد من البراهين، والإصرار على متابعة البحث هي خصائص لازمة للعقل المسلم الذي قَبِل مبدأ وحدة الحقيقة.

تقع وحدة الحقيقة في المنهجية الإسلامية على الطرف النقيض من تعددية

(١) الفاروقي، **أسلمة المعرفة –المبادئ العامة–خطة العمل–الإنجازات**، مرجع سابق، ص٥٣–٥٤.

الحقيقة في الفلسفية الغربية التي ترىٰ أنه بتعدد المنهج والوسائل تتعدد الحقائق، وتعدّ الحقيقة العلمية أرقي هذه الحقائق وأصدقها؛ لأنه يمكن أن يتحقق منها عن طريق التجريب، وأن الحقائق الدينية هي حقائق ميتافيزيقية لا يمكن اختبارها؛ لذلك يجب استبعداها من العلم نهائياً، "إن القول بالحقيقتين-وليس بالوحدة الحقيقية والحق-هو التعبير عن مناهج الفلسفة الوضعية من الدين، وعلاقته بالعلم، فهي ترىٰ أن المعارف الدينية قلبية وجدانية؛ لأن دورها النفعي بالنسبة لعامة الناس الذين لا تضبطهم الفلسفات العقلية، بينما المعارف العلمية عقلية برهانية، تخضع للفحص والاختبار اللذين لا تحتملهما المعارف الدينية الفلسفية الوجدانية، وأن من النافع وجود الحقيقتين متجاورتين، تجاور الغرفتين المستقلتين، لكل منهما خطابها ومعاييرها وجمهورها، فالحقيقة الدين حقيقة لا عقيلة ولا علمية صادقة بالنسبة لجمهورها، والحقيقية العلمية الفلسفية صادقة بالنسبة للخاصة المدركة لها"[١] ونقصد بالرؤية الواحدية، تلك الرؤية التي تقول إن منهج التفكير والبحث في أية قضية، أو مسألة من مسائل الواقع الطبيعي أو الاجتماعي أو الإنسانية هو منهج واحد.[٢]

- **موضوعية الحقيقة ونسبية الموقع منها**، "إن العقل المسلم وفطرته يكون علىٰ فطرة الوحي وهدايته؛ لذلك فالحقيقة لدىٰ العقل المسلم هي حقيقة موضوعية قائمة يدرك وجودها ويدرك أبعادها، ويسعىٰ للتفاعل السليم معها، ومع نواميسها وسننها، والحقيقة وإن كانت جوهراً واحداً لا يتغير ولا يتبدل إلا أن موقع الإنسان منها فرداً وجماعة هو موقع جزئي يتغير في الزمان والمكان وهذا يعني نسبية الموقع ونسبية التطبيق."[٣]

---

(١) عمارة، **الموقع الفكري لابن رشد بين الإسلام والغرب**، مرجع سابق، ص٢٠٤.

(٢) هيئة التحرير. **مجلة إسلامية المعرفة**، مرجع سابق، ع ٦٤، ص٥.

(٣) أبو سليمان، عبد الحميد. **قضية المنهجية في الفكر الإسلامي**، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٨٩م، مرجع سابق، ص٢٦.

وقد رأى كثير من العلماء في القرنيين الأخيرين أن طبيعة المنهج في اكتساب المعرفة، واختبارها وتوظيفها، قد حسمت لصالح المنهج التجريبي الذي أثبت قدراً كبيراً من الفعالية في التعرف إلى الأشياء المادية في الطبيعة...أخذ المنهج العلمي وإجراءاته إلى موضوعات الظواهر الاجتماعية والإنسانية والنفسية...وإن المنهج العلمي هو بالحق المنهج التجريبي."[١]

إذن، هذه أهم خاصية للمنهج في فلسفة العلوم الغربية خاصة مع مدرسة فينا (الفلسفة الوضعية المنطقية)، التي رأت أن أي معرفة لا يمكن اختبارها، هي معرفة لا أساس لها من الصحة، وتأتي على رأسها المسائل الميتافيزيقية الدينية التي تعاملت معها بمبدأ القابلية للتحقق، فما لا يتحقق حسيًّا لا يمكن إخضاعه للتجربة، "مع العلم أن المنهج التجريبي في الحقل الغربي أثبت عدم قدرته على التحرر من التحيزات الأيديولوجية للباحثين تجاه الظواهر الإنسانية التي يدرسونها إضافة إلى صعوبة التحقق التجريبي لعديد الظواهر كالانتحار والجريمة وغيرها."[٢]

لذا، فإن الباحث الذي يتبنى المنهجية التوحيدية، يستعمل مناهج متعدد في سعيه لتدبير شؤون حياته العلمية والعملية، تبعاً لطبيعة الموضوع الذي يكون موضع النظر.

**٢- مبدأ ثنائية مصادر المنهجية الإسلامية (ثنائية الوجود: عالم الغيب وعالم الشهادة):**

إن ثاني مقدمة معرفية في النموذج المعرفي الإسلامي الإقرار بثنائية الوجود، أي أن هناك عالم الغيب وعالم الشهادة، وتأسيساً على هذه الثنائية، يتشكل المبدأ الثاني في المنهجية الإسلامية، وهو ثنائية المصادر المعرفية، الوحي الرباني، والوجود (الكون أو العالم الحسي المادي)، "تحديد المصادر المعرفية التي تمثل مظانَّ للحقيقة ينبغي أن تنصرف المنهجية فيها، فالانطلاق من أن مصدر المعرفة

(١) هيئة التحرير. **مجلة إسلامية المعرفة**، مرجع سابق، ع ٦٤، ص٦.

(٢) المرجع السابق، ع ٦٤، ص٧.

الوحيد الوجود والمحسوس، يوجد منهجية تختلف عن الرؤية العرفانية الباطنية، كذلك فإن الانطلاق من أن مصادر المعرفة هي الوحي والوجود يختلف عن السابقين إذْ يؤدي تحديد مصادر المعرفة إلىٰ تحديد أبعاد المنهجية."[1]

**أ- الوحي مصدر المعرفة في المنهجية الإسلامية:**

يعد الوحي أحد المصادر الرئيسة للمعرفة في المنهجية الإسلامية، "إن الوحي كمصدر للتوحيد الإسلامي هو كلمة الله وإرادة الحق التي أوحىٰ بها إلىٰ نبيه محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ليبلغها إلىٰ الناس كافة، وجوهر ما يقدمه للناس هو توضيح طبيعة علاقة الإنسان بالله والغاية وجود الإنسان في الكون، ودليل حركة الإنسان في الحياة ومصير هذا الإنسان فيما وراء الطبيعة."[2]

يقودنا عدّ الوحي مصدراً معرفيًّا في المنهجية الإسلامية إلىٰ الإقرار بثلاثة مبادئ:

**الأول**: محدودية العقل البشري في إدارك عالم الغيب، كإدراك الألوهية، أو إدراك الآخرة أو بداية الخلق، أو غيرها، وهنا الوحي كفىٰ العقل البحث عن مسائل لا تقع في مجال إدراكه، فليس له سوىٰ التسليم بها، وهنا، لاتشتغل المنهجية الإسلامية بالمسائل الغيبية؛ لأنها يقينيات أتىٰ بها الوحي الرباني.

**الثاني**: إن البعد التكاملي بين عالم الغيب وعالم الشهادة في الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم، تجعل من الوحي الرباني وما ينطوي عليه من جملة مبادئ ومعارف وتوجيهات ربانية، تستعمل في عملية ترشيد العقل في توليد المعرفة الإنسانية، فانطلاقاً من الوحي تم توليد العلوم الإسلامية أو العلوم النقلية، التي يمثل الوحي مصدرها الوحيد، وتحتكم إلىٰ نصوصه (قرآن وسنة).

**الثالث**: إن الوحي ينطوي علىٰ بعض المبادئ المنهجية التي يمكن أن تستخدم في عملية توليد المعرفة في عالم الشهادة، والمتعلقة بالكون، وعلوم الطبيعة، أو

---

(١) عارف، **النظام المعرفي والمفاهيم المتعلقة به**، مرجع سابق، ص١١.

(٢) أبو سليمان، **قضية المنهجية في الفكر الإسلامي**، مرجع سابق، ص٢٠.

متعلقة بالمجتمعات الإنسانية، وهي العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ إذْ تعدّ الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم بمثابة البعد الميثودولوجي للمنهج الإسلامي، لا يمكن للعقل الإنساني عند توليد العلوم الإنسانية أن ينتهك هذه الميثوبولوجيا، وحدد محمد أمزيان جملة من الخطوات التي يمكن أن نستفيد منها في التأسيس للمنهجية الإسلامية بالاعتماد علىٰ الوحي كمصدر للمعرفة.(١)

- شمولية الوحي واستيعابه لمختلف النشاطات الإنسانية المادية منها والروحية من شأنه أن يفتح آفاقاً واسعة أمام العلوم الإنسانية ليخرجها من إطارها المادي الضيق الذي وجدت فيه، والذي انتهت معه إلىٰ اختزال الإنسان في جوانبه المادية مع إغفال لجوانبه الروحية والنفسية والعناصر الجمالية.

- إن هذه الشمولية يمكن أن تفتح آفاقاً جديدة وبإمكانها أن تغير الصورة التقليدية لمفهوم العلمية الذي استقرت عليه هذه العلوم، فتحرر العلمية من سلطة النزعة التجريبية، كما مارستها العلوم الطبيعية التي تعتمد الدين مصدراً معرفيًّا، وهنا فقط تتحرر العلمية من رواسب التاريخ الثقافي الغربي الذي يقيم تعارضاً بين الأسلوب العلمي أو الأسلوب الديني في البحث العلمي.

- إن الوحي من شأنه أن يحرر العلوم الإنسانية من المنحىٰ المادي الذي يكرس النزعة الإلحادية، وهي إشكالية غربية محضة، ارتبطت بالتاريخ الثقافي للغرب، وفي أفق التوحيد الذي يفرضه الوحي، تتحول العلوم الإنسانية من مهمة تبرير مشروعية التصورات المادية حول الإنسان والمجتمع إلىٰ اكتشاف القدرة الإلهية المبدعة في الإنسان والمجتمع.

**ب-الكون مصدر المعرفة في المنهجية الإسلامية:**

في البعد الكسمولوجي للرؤية الإسلامية إلىٰ العالم أنّ الكون حقيقة، وأنه

---

(١) أمزيان، محمد. **نقد مناهج العلوم الإنسانية، وخطوات صياغة مناهج إسلامية العلوم الإنسانية**، ضمن كتاب، **قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م، ص٢٢١-٢٢٢.

من خلق الله تبارك وتعالى، وأن الكون قرينة دالة على وحدانية الخالق، وأنه ينطوي على نواميس أو قوانين تحكمه؛ لذلك يعدّ الكون مصدراً مهمًّا للمعرفة، ومقدمة معرفية في النموذج المعرفي الإسلامي.

ينقسم الكون إلى عالمين منفصلين، إلا إنهما يشتركان في الطبيعة التكوينية نفسها، وتسري عليهما القوانين الطبيعية نفسها، وهما عالم الوجود الإنساني وعالم الوجود الطبيعي، ويمكننا عن طريق المنهجية الإسلامية اكتشاف طبيعة القوانين التي تحكم هذين العالمين، اللذين يختلفان من حيث الرتبة الوجودية؛ إذْ أحدهما مسخر للآخر، أي أن الله خلق العالم المادي لخدمة الإنسان، والعالم الإنساني في الرؤية الإسلامية إلى العالم ثنائي التركيب وليس أحادي التركيب، فهو من حيث الطبيعة المادية يشترك مع العالم المادي الوجودي، وتسري عليه القوانين نفسها، كالموت والحياة، والتأثر بالحرارة وبالنار وبعوامل الطبيعة المختلفة.

وتؤدي الطبيعة الروحية للإنسان إلى التسامي في هذا الوجود، وليس تسامياً ذاتيًّا؛ لأنه أراد ذلك، بل لأنه خليفة الله في هذا الوجود، فتقع عليه المسؤولية الأخلاقية، ومسؤولية تحمل الأمانة، وهنا، يكون العقل الأداة المعرفية التي تصل ما هو مادي بما هو روحي- نفسي، ويسعى العقل الإنساني لاكتشاف القوانين التي تحكم العالم المادي والاجتماعي؛ لتحقيق إعمار الكون وبنائه، ولكن وفق مقتضيات الوحي الرباني، التي يفهمها العقل البشري، كما تناولناها مسبقاً عن تأسيس العلوم الإسلامية التي تعنى بهذا الجانب .

ونحن نختلف مع ملكاوي عند تقسيمه العالم إلى ثلاثة مستويات،[1] فنحن نضم العالم النفسي مع العالم الاجتماعي؛ لأنه في مجال العلوم الاجتماعية، يستحيل أيضاً أن نفصل منهجيًّا بين البعد النفسي والبعد الاجتماعي عند إجراء الدراسات الاجتماعية، بل هناك تخصص يطلق عليه علم النفس الاجتماعي، فيصبح لدينا عالمان: العالم الطبيعي المادي ويتعلق بالموجودات المادية من

(١) ملكاوي، **منهجية التكامل المعرفي**، مرجع سابق، ص١٢١.

مستويات المجهرية الدقيقة إلى المجرات الهائلة في أحجامها البعيدة في مساقاتها، فلا ترى إلا بالمقراب وما بين ذلك من الأشياء والأحداث والظواهر. والعالم الاجتماعي النفساني، والذي يعنى بتشكل الدول والمجتمعات والأمم، والقبائل، وطبيعة العلاقات الإنسانية والأسرية والجماعية، إلى جانب الطبيعة النفسية والخلقية والروحية للإنسان.

**٣- مبدأ المعيارية في دراسة الظواهر في المنهجية الإسلامية:**

أكدنا في المقدمة المعرفية التي تناولت قضية القيم في النموذج المعرفي الإسلامي، أن القيم من صفتها الثبات، وليس التغير من حال إلى آخر في الرؤية الإسلامية إلى العالم؛ لأن مصدرها الوحي الرباني، وليس العقل كما تدعي الفلسفات الأخلاقية المادية العلمانية الغربية. كذلك البعد الغائي لخلق الكون وخلق الإنسان، الإنسان في الرؤية الإسلامية هو خليفة الله في الأرض؛ لذا تقع علية مسؤولية الاستخلاف ومسؤولية حفظ الأمانة، ومن هنا، تكون المعرفة في خدمة هذه المسؤولية وهذه الأمانة؛ لذلك طبيعة المعرفة في الإسلام، هي معرفة تتأسس على البعد الأخلاقي قبل البعد العلمي؛ لأنها منطلقة من غائية خلق الإنسان، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن منطلق، الآية الكريمة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فإن العلوم والمعارف محكومة بهذا البعد التعبدي، لذا فأهم خصيصة في المنهجية الإسلامية، هي البعد المعياري في التعاطي مع الظواهر، وبالأخص الظواهر الإنسانية؛ لأن المناهج الوضعية تؤكد الحياد الأخلاقي لتحقيق الموضوعية في دراسة ظواهر الوجود الإنساني، على الرغم من أن هذا الأمر قد يكون صحيحاً نسبيًّا في العلوم الطبيعية، بسبب طبيعة الظواهر الطبيعية، التي من خصائصها الثبات واستقلالها عن الإنسان، ومن ثمّ يمكن أن يدرسها الإنسان حياديًّا.

وفي حين تتعلق الظواهر الإنسانية بجملة التصورات الاعتقادية والأخلاقية

للبشر، فإن ارتباط المعرفة بالقيم الأخلاقية في المنهجية الإسلامية يخرجها من دائرة الموضوعية التي تدعيها المنهجية الغربية التي استبدلت القيم الأخلاقية الدينية بقيم وأخلاقيات أطلقت عليها صفة العقلانية، كقيم الصراع، وقيم الغاية تبرر الوسيلة، والقيم الحيوانية لبافلوف، وقيم المنفعة والمصلحة، وغيرها، ودعت إلىٰ تجريد العلم من الممارسات الأخلاقية لتحقيق الموضوعية.

تحرِّرُ المنهجية الإسلامية الموضوعيةَ العلمية من هيمنة الرؤية المادية العلمانية الغربية، وتوسع مداركها ووسائل تحقيقها، وأدواتها التفكيرية؛ إذْ "تزعم العقلانية العلمية تطهير وسائلها من كل أثر للمعاني والقيم الذاتية بحجة التزام الموضوعية والقيم الذاتية وبحجة التزام الموضوعية، هذا الطريق الذي يوجب في نظرها الاقتصار في كل شيء علىٰ الرجوع إلىٰ الملاحظة الظاهرة والتجربة الحسية، حتىٰ أصبحت المعاني الدينية والقيم الأخلاقية تَعدُّ عندها بمنزلة عوائق أو عقبات تثبط العمل العلمي وتخرجه عن حقيقته وفائدته، والصواب أن تحصيل تمام الموضوعية غير ممكن، وكل ما تفعله هذه الممارسة العقلانية هو أنها تستبدل بالمعاني الأخلاقية الدينية معانيَ وقيماً أخرىٰ غير دينية وغير أخلاقية بما فيها الموضوعية نفسها."[1]

لذلك؛ يجب الأخذ بالبعد المعياري في تناول الظواهر الإنسانية في العلوم الإنسانية، ولا يتوقف الباحث عند حدود التوصيف الخارجي للظواهر الإنسانية، إنما يتعداها إلىٰ عرضها علىٰ مصفوفة القيم الإسلامية، وهنا، يأتي مبدأ منهجي آخر في المنهجية الإسلامية، وهو عند الانتقال من مرحلة التوصيف إلىٰ مرحلة التفسير، يجب أن يستحضر القيم الإسلامية العليا في تفسير مختلف الظواهر الإنسانية؛ لأن المشكلة المنهجية التي تظهر في الدراسات الاجتماعية في العالم العربي والإسلامي، هي أنها تستطيع أن تصف الظواهر مستخدمة أدوات منهجية طورها النموذج المعرفي الغربي، إلا أنها لا تستطيع تفسيرها؛ لأن التفسير في الدراسات

(١) عبد الرحمن، طه. **سؤال الأخلاق**، مرجع سابق، ص٦٧.

الغربية مرتبط بالرؤية إلىٰ العالم التي انبثقت عنها عناصر النموذج المعرفي الغربي؛ لذلك ينتقل الباحث من مستوىٰ إلىٰ آخر في عملية اتساقية منسجمة تؤدي إلىٰ توليد المعارف في الغرب حول الظواهر الإنسانية بطريقة منهجية فعالة.

في حين لا يمتلك الباحث المسلم البعد المنهجي التفسيري، فيتوقف عند مرحلة الوصف ولا يتجاوزها؛ لأنه إن تجاوزها سيقع في النتائج نفسها التي تتوصل إليها الدراسات الاستشراقية أو الدراسات الأنثربولوجية الغربية عند دراسة المجتمعات غير الغربية، كالادعاء مثلاً أن هذه المجتمعات لم تصل إلىٰ مرحلة النضج العقلي، بل إنها مجتمعات أساسها الفرد القرد الذي لم تطوره الطبيعة إلىٰ إنسان كما يزعم داروين.

والدين هو من يعطل مسيرة النهضة والتقدم عند هذه المجتمعات، ويتم التركيز علىٰ آيات الجهاد، وحجاب المرأة، أو العلاقات الجنسية في الإسلام، وغيرها من المسائل، فيقع الباحث المسلم في حيرة منهجية، هل ينتهك مقومات الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم المؤسسة علىٰ الوحي الرباني؛ ليتمكن من تفسير الظواهر الاجتماعية والإنسانية؟ أم يتوقف عند حافة الوصف ولا يتخطاه؟ لذلك يبدو عقم المناهج الغربية في دراسة المجتمعات الإسلامية واضحاً وجليًّا.

## رابعاً: منهجية التعامل مع القرآن الكريم

إن أهم مصدر معرفي تشكلت حوله العلوم في التراث الإسلامي، هو القرآن الكريم، والسنة النبوية الشارحة له، فيرىٰ دعاة إسلامية المعرفة أن عملية الاستئناف والتجديد الحضاري لن تكون إلا من خلال إعادة الوصل المعرفي مع هذا النص الرباني، حتىٰ نتمكن من تحقيق انطلاقة حضارية جديدة، وترىٰ أن القرآن بوصفه نصًّا معصوماً من التحريف والتبديل؛ لأنه معصوم من قبل الله عز وجل.

ليست القضية إعادة تأكيد أن القرآن الكريم، هو وحي رباني، أو الدفاع عن

الجانب الغيبي فيه، أو الدفاع عن العقيدة الإسلامية، كما فعلت الفرق الكلامية الإسلامية، لما اصطدمت مع التراث المسيحي واليهودي في بلاد الشام والعراق، واصطدمت مع التراث الزرداشتي في بلاد فارس، إنما من منطلق مقتضيات العصر التي أصبح التدافع الحضاري فيها بين الأمم يقوم على العلم والمعرفة، فنحن في حاجة إلى تجديد المنهج لإعادة قراءة الوحي الرباني؛ لنتمكن من توليد العلوم والمعارف الإسلامية، والإسهام في العلم الإنساني المعاصر.

لذلك؛ رأى المشتغلون بإسلامية المعرفة، أننا في أمس الحاجة إلى إعادة إبداع منهج، يمكننا من قراءة معرفية للقرآن الكريم، دون المساس بقدسيته أو بيقينياته، أو حقائقه، بل القضية هي قراءة إبداعية للنص القرآني، "بناء منهج التعامل مع القرآن الكريم المجيد من خلال تلك الرؤية المنهجية، وبوصفه مصدراً للمسلمات ما قبل المنهج، كما أنه مصدر للمنهج والشِّرعة والفكر والمعرفة ومقوم الشهود الحضاري والعمراني."[1]

يقع العبء الأكبر على المشتغلين في العلوم الإسلامية، للعمل على تحرير النص القرآني مما شابه من قراءات تحريفية وتأويلية لا علاقة لها بالعقل الإسلامي، وعودة الوصل بين الوحي والمسلم المعاصر، وإعادة قراءة كل الوسائل والأدوات المعرفية التي استخدمت في التراث لفهمه، والعمل على الاستفادة منها وتجاوزها في الوقت نفسه، ورد تلك القراءات إلى طبيعتها التاريخية، وتبيان محدودية العقل الإنساني الذي تعامل مع النص في تلك المرحلة التاريخية من التراث الإسلامي.

أما في المرحلة الراهنة: "فإن العقلية السائدة هي عقلية الإدراك المنهجي للأمور والبحث عن علاقاتها الناظمة للقضايا بطرق تحليلية ونقدية توظف الأطر العلمية المختلفة وتربطها بموضوعات حضارية متشعبة وعلاقات متنوعة، مما يجعل إعادة النظر في علوم وسائل فهم النص ضرورة ملحة لخدمته وقراءته قراءةً

---

(١) العلواني، طه جابر. **إسلامية المعرفة بين اليوم والأمس**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٢.

تجمع مع الكون واكتشاف التداخل المنهجي بينهما."[١]

## خامساً: منهجية التعامل مع الواقع

إن أحد المجالات التي تهتم بها إسلامية المعرفة بوصفها مشروعاً فكريًّا متكاملَ الجوانب، هو المجال الواقعي؛ لأن أحد أبرز وجوه الأزمة الحضارية التي نعاني منها، تلك الهوة بين المعرفة وامتداداتها في الواقع؛ إذْ حدث فصامٌ بين العلوم التراثية والواقع الاجتماعي؛ لذلك؛ "إن الفهم الدقيق لإسلامية المعرفة يستلزم الإحاطة ببعض الأمور مثل: كيف نتعامل مع القرآن والسنة الشريفة؟وكيف نتعامل مع التراث؟ وكيف نتعامل مع الواقع؟... والذي نعنيه من الواقع هو واقع الفرد وواقع الجماعة، سواء كانت في حالة حركة أو حالة سكون..."[٢]

تحضر هنا فكرة الواقع، بسبب تعاطي العلوم الاجتماعية الغربية مع واقع مجتمعاتها وقدرتها على تحليل المشكلات والأزمات التي تعاني منها، وتبدو أنها تملك فعالية أكبر في التأثير في الفرد والمجتمع، وفي التراث الإسلامي وفي العصور الأولى للحضارة الإسلامية، تطورت كثير من المباحث المعرفية نتيجة لصدامها مع الواقع، فكانت تقدم الإجابات عن أسئلته وتحدياته، كما فعلت علوم الفقه وعلم الكلام وعلوم الحديث، وغيرها، وفي وقتنا الحاضر ونتيجة اشتغال العقل الإسلامي بالجانب النظري والتصوري وإسقاط الواقع والتفكير فيه من رؤيته المعرفية، حرم العلوم من قدرتها على التفاعل مع الواقع؛ لذلك فمهمة تحديد الواقع هي مهمة ضرورة منهجية ومعرفية، تمكننا من والوصل بين النظري والعملي في مختلف العلوم، فعند التعامل مع الواقع ندركه انه عدة مسويات:[٣]

١ – الواقع الذي راعاه المشرع عند نزول الوحي، وهو في جملته مراعاة لسنن الله في الأنفس والمجتمعات دون غيرها من مؤثرات البيئة والزمان والمكان، نظراً

---

(١) العلواني، **إسلامية المعرفة بين اليوم والأمس**، مرجع سابق، ص٢٢.

(٢) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص٣٠.

(٣) الفاروقي، **أسلمة المعرفة**، مرجع سابق، ص٣٢.

لأن التشريع خالد إلىٰ يوم القيامة، وقابل للتطبيق علىٰ الأفراد والمجمعات مهما اختلفت بيئاتهم وظروف زمانهم ومكانهم، وحين كان ينزل القرآن رداً عن سؤال أو حلاً لمشكلة بلفظ عام فإن القاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٢- وهناك مستوىٰ آخر من مراعاة الواقع هو مراعاة الأئمة المجتهدين في استنباط الأحكام الشرعية حين كانوا يُنزلون حكم الكتاب والسنة المطهرة علىٰ ظروف بيئاتهم وزمانهم ومكانهم، وهذا أحد أسباب الاختلاف علىٰ الأحكام كما ما هو بيّن في كتب أصول الفقه.

٣- وهناك مستوىٰ ثالث من مراعاة الواقع، حين تستفتي المفتي في واقعة معينة وحين يحكم القاضي في نزاع معين، ففي كلتا الحالتين تدخل في الاعتبار ظروف أخرىٰ من الواقع تتعلق بالمستفتي وبالمتقاضين، وظروف الواقعة مما هو أخص وأدق من مجرد مراعاة العرف العام والأحوال العامة للمجتمع والعصر والمكان.

تقع علىٰ العلوم الاجتماعية التي يتم تأسيسها انطلاقاً من النموذج المعرفي الإسلامي، مهمة تحديد الواقع (السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي) بدقة، موظفة الأدوات البحثية المختلفة التي طورتها العلوم الاجتماعية الغربية في رصد حركة الواقع والتغيرات التي تعتريه.

لذلك؛ فأحد الجوانب التي تتكامل فيها العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية، التكاملُ المعرفي في تحديد الواقع بمستوياته المختلفة؛ لأن العلوم الاجتماعية المراد تأسيسها في العالم العربي تكون مرتبطة بعملية الإصلاح الحضاري، وليس بالوصف الحيادي للظواهر، الذي تدعيه الفلسفات الوضعية، وتوصيف الواقع في الرؤية المعرفية الإسلامية، هو بالضرورة بحكم قيمي علىٰ تغييره أو إصلاحه إلىٰ أن يتوافق مع مقتضيات التشريع الرباني، مع مراعاة نواميس التغيير الحضاري والإنساني وقوانينه، ونحن في أمس الحاجة اليوم إلىٰ الدفع بالإصلاح للأسباب التي ذكرناها عن طبيعة الأزمة الفكرية التي تعاني منها الأمة الإسلامية؛ لذلك إن

الغاية من تأسيس علوم اجتماعية من منظور إسلامي، هو دراسة الواقع دراسة علمية موضوعية، عن طريق تحليل مختلف الظواهر المجتمعية في العالم الإسلامي، بغية تحقيق التغيير الحضاري وفق الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

# خلاصة

إن أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث عن الأبعاد الإبستيمولوجية لإسلامية المعرفة، نوجزها في:

- تأسست مدرسة إسلامية المعرفة بوصفه تياراً ضمن الفكر الإسلامي المعاصر، وأخذت طابعاً مؤسسيًّا ممثلاً في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، تعمل جاهدة وبكل الوسائل على حل الأزمة الفكرية والحضارية التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وذلك بتقديم البدائل المعرفية والمنهجية، ودار النقاش بين روادها حول عوارض الأزمة الفكرية التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وحصروها في ثلاثة مؤشرات، ازدواجية التعليم وأثره في المسلم المعاصر، وهيمنة النموذج المعرفي الغربي على الفكر والثقافة الإسلامية، وقصور المنهجية الإسلامية التقليدية على معالجة المشكلات المعرفية الحديثة، وتكلس أدواتها الإجرائية.

- وتعدّ هذه المؤشرات، بمثابة المبررات التي ساقها دعاة إسلامية المعرفة عن طبيعة الأزمة الفكرية التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وبرأيهم أن الحل يكون من طبيعة معرفية ومنهجية، فطرحوا إسلامية المعرفة بوصفها قضية منهجية بامتياز، وليست دعوة دينية أو مذهبية سياسية، ومنهجاً يساعد العقل الإسلامي على تجاوز تناقضاته المعرفية، وتكلس أدواته المنهجية التقليدية، ويتمكن من الإبداع المعرفي. ومع مرور الزمن وبتزايد عدد المنخرطين في مشروع إسلامية المعرفة، تحولت الفكرة ونمت إلى مشروع فكري حضاري.

- تسعى إسلامية المعرفة بوصفها مشروعاً معرفيًّا وحضاريًّا إلى تفعيل الرؤية الإسلامية إلى العالم في كل جوانب الحياة المعاصرة في العالم العربي والإسلامي، ولا سيّما في الجانب المعرفي، بإعادة التأسيس لمقدمات النموذج المعرفي الإسلامي، وأيضاً كآلية لتأسيس المنهج الإسلامي، فتنقلُ إسلاميةُ المعرفة الرؤيةَ الإسلامية إلى العالم، كخريطة تصورية يحملها الإنسان المسلم إلى خريطة معرفية منهجية، يتمكن من خلالها المسلم من توليد المعرفة والعلوم، التي تكون بالطبع متسقة مع هذه الرؤية وحاملة لعناصرها.

- تتشكل الرؤية الإسلامية للعالم من أربع خصائص: الألوهية، والشمولية والعالمية والثبات، ويعدّ التوحيد أهم مقوم لهذه الرؤية، ومرتكزها المعرفي والمنهجي، وتتأسس عليه بقية الأبعاد الأخرىٰ، وليس التوحيد بمعناه اللاهوتي القهري الغيبي، بل بمعناه المعرفي الذي تتأسس عليه الرؤية للوجود والكون، والتوحيدُ ناظمٌ منهجي معرفي تتولد منه جملة الحقائق، وتتولد منه المعرفة الإسلامية.

- يعدّ النموذج المعرفي جملة من المقدمات المعرفية والمنطقية المتولدة من الرؤية الإسلامية إلىٰ العالم التي تعد أساساً عقائديًّا ميتافيزيقيًّا للنموذج، وتستنبط هذه المقدمات من قراءة الوحي والكون، ومن قراءة نقدية واعية للتراث الإسلامي وللتراث الإنساني، محددة بالأساس مصادرَ المعرفةِ ووسائلها وغاياتها، وهو نتيجة لجهد معرفي مشترك لجماعات علمية، يمكن تأسيسها بوصفها جماعة مدرسة إسلامية المعرفة، التي طرحت النقاش حول طبيعة هذا النموذج.

- لا يمكن للباحث المتمرس في مجال العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع علىٰ وجه التحديد أن يغفل عن تلك التحيزات التي يبديها الباحثون تجاه جملة من المسلمات والفرضيات، والتي تكون في الغالب الأعم مضمرة في خطاباتهم العلمية والاجتماعية، ويحاولون إخفائها بغطاء العلموية التي يصفون بها أعمالهم، وغطاء الموضوعية التي يدعون أنها تطبع أفكارهم ودراساتهم؛ لذلك فالتحيز صفة حتمية في النماذج المعرفية؛ لأنها تتأسس علىٰ رؤية وجودية إلىٰ العالم يمثل الدين مصدرها الرئيس.

❋ ❋ ❋